استدراكات على رحلة التونسي إلى دارفور (*)(١)

المعروفة باسم

« تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان »

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد علمي

---

١ ـ مقـــدمة :

نشر الدكتوران : خليل محمود عساكر ، ومصطفى محمد مسعد في سنة ١٩٦٥ م رحلة الشيخ محمد بن عمر بن سليمان التونسي إلى دارفور التي أسماها : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . واعتمدا في تحقيق نصها العربي على الطبعة الحجرية التي كان المستشرق الفرنسي الدكتور أ . بيرون A. Perron قد نشرها في باريس في سنة ١٨٥٠ م ، وكان قبل ذلك قد ترجمها إلى الفرنسية ونشر الترجمة في سنة ١٨٤٥ م ، وراجع المحققان النص العربي على هذه الترجمة للاستيثاق من تقويمه . وأضافا من الحواشي ما رجعا فيه إلى مصادر مختلفة ، وخاصة ما يتعلق منها بدارفور ، وألحقا نشرتهما بطائفة من الرسوم والخوارط مما أدرجه بيرون في الترجمة الفرنسية وأدرج غالبيته في طبعته العربية للرحلة ، وزادا عليها خارطتين حديثتين إحداهما لشمال شرقي إفريقية والأخرى لدارفور لم يوضحا للأسف مقياس الرسم فيهما . وأضاف المحققان معجماً صغيراً للمفردات الفوراوية كان .ف. جومار E. F. Jomard قد ضمّنه أواخر مقدمته التي صدر بها الترجمة الفرنسية للرحلة ، مع إيراد مقابلها في الفرنسية ، فترجمها المحققان إلى اللغة العربية كما ترجما لحقاً خاصاً بالأمير الفوراوى ، أبي مدين ومشروع محمد على

(*) محاضرة القيت بدار الجمعية مساء الاثنين ٢٢ من يناير سنة ١٩٦٨

(١) لم تتسع المجلة لنشر النص الكامل لهذه الاستدراكات واقتصر فيها على هذه المقتطفات .

لفتح دارفور ، كان بيرون قد ذيّل به ترجمته الفرنسية للرحلة . ثم أضاف المحققان ذيلاً جديداً نقلاه عما كتبه عن تاريخ دارفور نعوم شقير في كتابه. « تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته » (القاهرة سنة ١٩٠٣ م) ، رغبة منهما في إمداد القارئ العربي بمصدر آخر عنها . ولم يفت المحققين أن يقوما بزيارة دارفور لمشاهدة معالمها والتحدث إلى أبنائها ومراجعة البيانات التى أوردها عنها التونسى في رحلته إبان مقامه بها في العقد الأول من القرن الماضى ، واستكمالاً للعناية بإخراج الرحلة قام بمراجعتها الدكتور محمد مصطفى زيادة .

ولقد اضطر المحققان في تقويم النص إلى الاعتماد على هذه الطبعة الحجرية وحدها التى نشرها بيرون في باريس في سنة ١٨٥٠ م . ذلك لأنه لم يُعثر على أصلها الذى دوّنه التونسى ، عندما اقترح عليه بيرون أن يجعل من مشاهداته وذكرياته عن البلاد السودانية التى زارها وأقام بها نحو عشر سنوات من سنة ١٨٠٣ م إلى سنة ١٨١٣ م ، وهى دارفور ووداى ، جزءاً من دروس اللغة العربية التى كان يتعلمها من مؤلفها إبان تزاملهما في العمل في مدرسة الطب في أبي زعبل ، حيث كان التونسى مصححاً للكتب العلمية المترجمة إلى اللغة العربية ، كما كان بيرون أستاذاً للمادة الطبية بها . وقد تزاملا مرة أخرى عندما رقي الأول كبيراً للمصححين والثاني ناظراً لمدرسة الطب عندما نقلت الأخيرة إلى قصر العينى .

وعلينا أن نأخذ في الاعتبار دائماً تلك الحقيقة الأساسية ، وهى اضطرار المحققين إلى الاعتماد على الطبعة الحجرية التى نشرها بيرون بخطه . فبيننا وبين النسخة الأصلية التى دوّنها التونسى تلك التى نشرها بيرون نقلاً عنها . ويحق لنا أن نتساءل : هل وفق بيرون في أن ينقل عن الأصل نقلاً صحيحاً ؟ أو كان مستواه في علوم اللغة العربية من حيث نحوها وصرفها وبلاغتها وعروضها وفقهها مما يعينه على أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، على الرغم من أنه كان أجنبياً عنها ؟ لقد غاب ذلك عن المحققين ، إذ اعتقدا أن تلك النسخة الحجرية التى نشرها بيرون إنما تمثل تماماً الأصل الذى كتبه التونسى ، وقاما

أحياناً بتصويب الأخطاء مع التنبيه إلى ذلك فيما كتباه من الحواشي ، أو إثباتها كما هي مع الإشارة إليها في ذيل الصفحات بعبارة « : كذا في الأصل ». كما تركا عدد غير قليل منها دون تصويب إذ لم يتنبها إلى وجه الخطأ فيها ، وهي كلها مما يوحي للقارئ صدورها عن مؤلف الكتاب ، مع أنها بالنسبة إلى غالبيتها لاتصدر إلا عن مبتدئ أو شاد في علوم العربية ، لم يحصل منها إلا على صبابة يسيرة فكيف بِجَهْبَذٍ عَلاّمة كالتونسي كان الرائد الأول في مصر في تعريب المصطلحات الطبية والعلمية قبل إنشاء المجامع اللغوية في البلاد العربية ، كما كان محققاً لطبعتي مقامات الحريري والمستطرف للأبشيهي اللتين أخرجتهما مطبعة بولاق ، ومشرفاً على تحقيق القاموس المحيط للفيروز أبادي فضلاً عن ملكته في تذوق الشعر بل وفي نظمه ، كما يتجلى ذلك في الشواهد التي نمثّل بها والمقطعات التي جادت بها قريحته مما ساقه في ثنايا كتابه ، وسنعود إلى بيان هذه الأخطاء تفصيلاً فيما بعد .

٢ ــ مدى الاهتمام برحلة التونسي الى دارفور :

كانت الطبعة الحجرية للنص العربي لرحلة التونسي إلى دارفور التي ظهرت في باريس في سنة ١٨٥٠ م بالغة الندرة عزيزة المنال مما جعلها بالنسخ الخطية أشبه بدليل ماذكره جورج دوان في المجلد الثالث من تاريخ اسماعيل[١] من « أن الترجمة الفرنسية لرحلة الشيخ محمد التونسي وقعت في يد جعفر مظهر حكمدار السودان وذلك في سنة ١٨٦٧ م ، وأنه طلب من القاهرة أن يقوم رفاعة رافع الطهطاوي بإعادة ترجمتها إلى العربية إذا لم يسفر البحث عنها على العثور على أصلها العربي» . ومع ذلك فقد أتيح لعلي مبارك بعد هذا التاريخ بما يقرب من عشرين عاماً أي سنة ١٨٨٧ م أن يرجع إلى الطبعة الحجرية للنص العربي للرحلة بدليل مانقله عنها في الفصل الذي عقده عن الواحات في كتابه الخطط التوفيقية الجديدة فقد جاء في ص ٣٣ من الجزء السابع عشر من كتابه قوله : « ثم إني قد رأيت وصف بعض بلاد الواحات ووصف الطريق من ريف مصر إليها ومنها إلى بلاد دارفور في رحلة الشيخ

---

(١) الجزء الأول من الامبراطورية الافريقية (١٨٦٣ ــ ١٨٦٩ م) نشر الجمعية الجغرافية المصرية (بالفرنسية) القاهرة سنة ١٩٣٦ م ص ٣٢٠

محمد بن عمر التونسى وهى كتاب سماه : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، فأحببت إيراد ذلك هنا لما فيه من الفائدة ، ثم عاد على مبارك بعد ذلك ونقل عن التونسى ترجمته لنفسه .

هذا ونجد إشارات مختلفة إلى التونسى ورحلاته في كتابات مؤرخى الآداب العربية والباحثين من أبناء البلاد العربية المشتغلين بالتاريخ الجغرافي مثل إسماعيل رأفت[١]، وتاريخ السودان مثل نعوم شقير[٢] ولكن كتابات هؤلاء يتضح منها أنهم لم يطلعوا عليها على الرغم من إدراجهم لها بين المصادر التى رجعوا إليها . كما أن رحلات التونسى قلما تذكر في المؤلفات الإفرنجية الخاصة بتاريخ الكشوف الجغرافية الخاصة بإفريقية .

٣ ــ رحلات التونسى فى اطار حركة الكشف الجغرافى لافريقية :

لم يوضح المحققان في مقدمتهما لرحلة التونسى إلى دارفور قيمة مشاهدات التونسى في البلاد السودانية ، وتحديد منزلتها بالنسبة لما كتبه الرحالة الأوربيون في استكشافهم لمجاهل القارة الإفريقية في القرن الماضى . وقد قال جومار في تصديره للرحلة إلى دارفور : « لقد اتضح لى عند قراءتي لهذه الرحلة أنها ستضيف الكثير إلى مالدينا في الوقت الحاضر من معلومات (عن إفريقية) وأنها ستكون نعم العون لأولئك الذين سوف يعتزمون السياحة إلى ذلك البلد النائي الذى يمكن أن نعده مدخلاً إلى البلاد السودانية . » وقال في موضع آخر : إنه ليس من نافلة القول أن يحذّر القارئ مما يحدثه في نفسه الأسلوب الشرقي للمؤلف من الانطباعات ، فهو أسلوب أقرب إلى الكتابات التى تعتمد على الخيال ، ونظراً لأن كتب التاريخ والرحلات رائدها الأساسى هو تَوَخّى الحقيقة ، فإن أسلوب المؤلف قد يوحى للقارئ أن هذه الرحلة لاتخلو من المبالغة » . غير أن جومار أكد صدق مااشتملت عليه الرحلة من البيانات وأن « المؤلف إذا كان قد أخطأ في بعض ما أورده فقد صدر في ذلك عن

---

(١) التنبيان فى تخطيط البلدان جـ ١ القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ ص ٣٨٨
(٢) القاهرة سنة ١٩٠٣ م جـ ١ ص ٧

حسن نيه ، فهو حين لايرى شيئاً بعينى رأسه لايتردد في أن يصرح لنا بذلك ، كما أنه يروى لنا ما يحكى له دون أن يؤكد لنا صحته » .

وقال بيرون في مقدمته بأنه كان عليه أن يستوثق من صحة البيانات التى أوردها التونسى في رحلتيه ، فرجع إلى عدد من أبناء كردفان ودارفور ووداى وأنه وجد دائماً في أقوالهم مطابقة تامة لما كتبه التونسى ، ولزيادة الاستيثاق سعى بيرون في الحصول على بيانات عن رحلات الإنجليز في البلاد السودانية ابتداء من سنة ١٨٢٢ م وقد تأكد لديه « أن التونسى لم يعرف شيئاً ألبتة عن كتابات كلابرتون Clapperton ودنهام Denham وأدني Oudney والأخوين Landers عندما دوّن رحلاته . ولم تكن لديه أية فكرة عن هؤلاء الرحالة الإنجليز ومشاهداتهم عندما وصف القبائل العديدة التى التقى بها وخبر التقاليد والعادات التى درجوا عليها وألم بتاريخ سلاطينها الذين اتصل بهم وقتاً طويلاً . . . ولابد من أن يكون المرء قد عاش مثل التونسى في هذه البلاد حتى يحصل على جميع هذه التفصيلات والدقائق التى أودعها كتابه . » .

وقد انتقد كل من بارت Barth وناختيجال Nachtigal رحلات التونسى بأنها لا تزودنا بمعلومات وثيقة عن البلاد التى زارها وذلك من النواحى الجغرافية والطبوغرافية والإحصائية والمتيورولوجية . وليس هذا نقداً جديداً فقد اعترف به كل من جومار وبيرون فيما كتباه من مقدمات لرحلتى التونسى بل أخذا عليه ميله إلى الإستطراد فيما لا يتصل بموضوع رحلاته . وانتقده آخرون بأن بياناته على الرغم من صحتها فإنها تفتقر إلى منهج منسق في البحث ويقول شتريك Streck محرر مادة التونسى في الموسوعة الإسلامية القديمة : « إن كتابات التونسى تعد مصدراً هاماً للدراسة الأحوال الإثنوغرافية والثقافية والسياسية لبلاد السودان التى زارها ، ولكنها مع ذلك لا تلقى سوى قليل من الإهتمام والتقدير » .

ومع ذلك فان رحلات التونسى تعتبر في نظرنا إضافة هامة للمعلومات الخاصة بإفريقية ، لايغض من قيمتها إغفال الأوروبيين لذكرها أو قلة تقديرهم لها . وهى بالنظر إلى ظروف تدوينها بالقاهرة يمكن أن نلحقها بالعصر الذى

أسهمت فيه مصر في حركة الكشف الجغرافي لإفريقية في القرن الماضى ، سواءً بتيسيرها للرحالة الأجانب القيام برحلاتهم بفضل توطيدها للأمن في ربوع البلاد التى هيمنت عليها أو فيما اضطلعت به من إرسال البعوث لكشف منابع النيل ، بيد أن تدوين التونسى لرحلاته كان ثمرة من ثمرات البيئة العلمية التى هيأتها مصر وأوجدت فيها تعاوناً وتزاملاً بين العلماء العرب والأجانب .

ومن جهة أخرى تعتبر رحلات التونسى حلقة متأخرة من حلقات الكتابات العربية عن إفريقية لأنها بها أشبه ، فهى تذكرنا بما كتبه الرحالة العرب القدامى الذين لم يقتصروا على إيراد ما أمكنهم إيراده من وصف للمعالم الجغرافية للبلاد التى جالوا في ربوعها ، بل كتبوا عن نظمها ووقائع تاريخها ومآثر أعلامها وعادات أهلها ومذاهبهم . وإذا صح ما قاله أحد المستشرقين من أن الجبرتي هو آخر من يمثل المؤرخين العرب في الكتابة طبقاً للتقاليد العربية في تدوين التاريخ ، فإن التونسى يمثل أيضاً آخر من كتب طبقاً لأساليب الرحالة العرب .

٤ ـ منهج للتعليق على رحلة التونسى الى دارفور :

جرت عادت أعلام الباحثين من محققى الكتب العربية من أبناء بلاد الشرق العربي ، وذلك في السنوات الأخيرة ، بأن يقوموا بالتعريف بأعلام الأشخاص والمؤلفات وغيرها مما يرد في النصوص التى يحققونها ، مع ذكر مواضع ورودها في المصادر العربية الأخرى ، كما يحرصون على تخريج الأحاديث وضبط النقول ونسبة الأشعار إلى قائليها وإثبات ما ورد منها في روايات مختلفة ، بالإضافة إلى استقصائهم شرح الألفاظ اللغوية . وهذه التعليقات التى يوشّون بها المؤلفات العربية القديمة في حواش ضافية تعتبر إحدى الخدمات المثلى لتجلية نصوصها . ومما يدعو إلى الإعجاب أن بعض المستشرقين اتبع هذه الطريقة فيما ترجموه أخيراً لعدد من الكتب العربية . ففى ترجمة سير هارولد جيب H. Gibb لرحلة ابن بطوطة إلى الإنجليزية نراه يثبت في الحواشى تراجم من يرد ذكرهم من الأعلام في النص يستقيها من معجمات التراجم العربية ، كما يتبع هذه الطريقة في بيان الأماكن التى

زارها ابن بطوطة بالرجوع إلى كتابات الرحالة والجغرافيين العرب ، وقد يرجع فيما يكتبه من الحواشى إلى مصادر غير عربية زيادة في تجلية النص . وسار على هذا النهج فرانز روزنتال F. Rosenthal في ترجمته الإنجليزية القيمة لمقدمة ابن خلدون .

ونظراً إلى أن رحلة التونسى إلى دارفور التى مضى على ظهور طبعتها الحجرية الأولى زهاء مائة وثماني عشرة سنة تعد من أسفار الرحلات العربية ، أودعها مؤلفها من الوقائع والأشعار وأسماء الأعلام والمؤلفات ما جعلها أقرب شبهاً بما دونه العرب قديماً في رحلاتهم ، فإنها في حاجة ماسة إلى مثل هذه التعليقات . ولم يفت المحققين أن يزودا النص بحواش عن أسماء القبائل والأماكن ، ويبدو أنهما قنعا بذلك فلم يوردا سوى النزر اليسير من التعليق على ما ورد في الرحلة ، كما يتضح من حاشيتهما على على باشا الأول صاحب تونس ، حيث أحالا القارىء على كتاب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية لمحمد الباجى المسعودى ، وحددا له الصفحات للمراجعة . بيد أن كتابتهما لم تزد القارىء تعريفاً بعلى باشا هذا ، متى عاش ؟ ومتى توفي ؟ وماذا صنع في تونس ؟ ويتجلى ذلك أيضاً في حاشيتهما الموجزة عن ابن دريد . كما أشارا في ثبت المراجع إلى مقال أوريان A. Auriant عن أحمد أغا الزانتى الذى لم يطلعا عليه وبالتالى لم ينتفعا به للتعريف بذلك اليوناني المنتسب إلى المماليك الذى وفد على عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور وحاول اغتياله . وكان الفوراويون يطلقون عليه اسم : « زوانة كاشف » . وقد فصل جانباً من قصته الرحالة الإنجليزى وليم جورج برون[1] W. G. Browne . وكتابه من مراجع المحققين ، ولكنهما لم ينتفعا به أيضاً .

لقد أغفل المحققان أن يوردا من الحواشى المختلفة ما يوضح النص مثل التعليقات اللغوية والتاريخية وتراجم الأعلام وإيضاح ما ورد ذكره في الرحلة من المصنفات وما لم ينسب إلى قائله من الأشعار إلى آخر ما هنالك ،

---

(١) رحلات فى افريقية ومصر والشام ، لندن ١٧٩٩م ص ١٥٦ الى ص ١٥٨

وامتد هذا الإغفال إلى مقدمتى جومار وبيرون اللتين صَدّرا بها الترجمة الفرنسية لرحلة التونسى إلى دارفور ، وقد استمددنا منهما عدداً غير قليل من البيانات ، وكنا نود أن يوفر المحققان على القارىء عناء الرجوع إليهما لو أنهما ترجما على الأقل مختارات منهما وذلك بأن يثبتا ما يتصل منهما اتصالاً مباشراً بالرحلة ، وأن يُغفلا ما أفاض فيه جومار عن كشف منابع النيل ، وما كتبه بيرون عن الأجناس الإفريقية ودعوى التعاون بين الأفارقة والأوروبيين . أما ما أورده بيرون في مقدمته من نصائح قدمها للراغبين في استكشاف مجاهل إفريقية ، فمن الجائز إهماله أيضاً لبعده عن موضوع الرحلة . ويبدو أن المحققين قد خشيا من ترجمة هاتين المقدمتين لأنهما تزيدان في حجم الكتاب بما يؤدى إلى تقسيمه إلى مجلدين . بيد أنهما لو عمدا إلى اختصارهما كما أوضحنا ، ووفّرا الحيز الذى شغلاه في تصويب الأخطاء التى نسباها ظلماً إلى التونسى ، وهى في حقيقتها قد صدرت عن بيرون ، لكان من الميسور إثبات جانب من هاتين المقدمتين ، ذلك لأنا نرى أن رحلتى التونسى يرجع الفضل في تدوينهما ونشرهما إلى كل من المؤلف والمترجم ، مضافاً إليهما جومار الذى عُنى بتحريرهما والإنفاق على نشرهما والفضل يتقاسمونه على هذا الترتيب . ومن الواجب الوفاء بحق هؤلاء جميعاً عند العمل على إحياء هاتين الرحلتين بعد انقضاء أكثر من قرن من الزمان صدورهما .

أما الحواشى التى أدرجها بيرون في ترجمته لرحلة دارفور سواء في ذيل الصفحات أو فيما ألحقه بالرحلة تحت عنوان : مذكرات وإيضاحات فأكثرها يتعين ترجمته وإثباته . وعلينا أن ننظر في تعليقات بيرون التى رمز إليها بحرف P وهو الحرف الأول من إسمه . إن قُصِد بها تبصير القارىء الأروبى بما استغلق عليه فهمه ولكنه واضح للقارىء العربي ، فهذا لابأس من إغفاله . أما الشروح الإضافية التى تزيد المتن إيضاحاً ، أو التى تمد القارىء بمعلومات جديدة ليست واردة في النص ، فهذه يتعين ترجمتها ولا سيما إذا كانت مذيلة بهذه العبارة وهى : « مذكرة من الشيخ » أو « كما

جاء في الإيضاح الشفوى من الشيخ » . فهذا النوع من الإيضاحات المستقاة شفوياً من التونسى يجب أن تُعَدّ جزءاً لايتجزأ من النص العربى لرحلته . ولذا فقد كان من واجب المحققين أن يترجماها إلى العربية وأن يذيلا بها صفحات كتاب التونسى ، ذلك لأن بيرون قَصَّر في إضافة هذه الإيضاحات لطبعته الحجرية للنص العربى للرحلة وآثر بها ترجمته الفرنسية .

٥ ــ التعليقات التى كان يحسن بالمحققين أن يضيفاها لرحلة التونسى الى دارفور :

١ — درب الأربعين : أورد على مبارك في خططه (ج ١٧ ص ٣١ : ٣٣) بيانات عن درب الأربعين الذى سلكه التونسى في رحلته إلى دارفور تزيد على ما كتبه برون Browne في رحلته إليها وما كتبه شو Shaw في مجلة S.N.R. ولا شك أن المحققين كان بوسعهما أن يفيدا من تلك البيانات في كتابة حواش أفضل مما كتباه في ص ٤٩ وينطبق هذا أيضاً على ما كتبه الرحالة الإنجليزى ج. ا . هوسكنز G. A. Hoskins في كتابه : زيارة للواحات الكبرى في صحراء ليبيا (لندن سنة ١٨٣٧م ص ١٤٨ : ١٦٠) وعلى ما كتبه الكونت إسكايراك دى لوتور Escayrac de Lauture عن طرق التجارة السودانية في كتابه : الصحراء والسودان (باريس سنة ١٨٥٣ م ص ٥٥٧ : ٥٨٥) .

٢ — ابن دريد : تمثل التونسى في ص ٥ من التحقيق ببيت من الشعر من مقصورة إبن دريد أخطأ بيرون في إيراده ، إذ كتبه خالياً من واو العطف في مطلعه مما يؤدى إلى كسر وزنه ، وجاراه المحققان في هذا الخطأ وهو كما جاء في المقصورة الدريدية التى نشرت بمطبعة الجوائب بالاستانة (سنة ١٣٠٠ هـ ص ١١٥) :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وأورد المحققان ترجمة موجزة لابن دريد لم يشيرا فيها إلى مظانها ولا إلى منزلته في اللغة والأدب . وقد ترجم له ابن خلكان في وفياته كما ترجم له

ياقوت في معجم الأدباء وذكر ما قيل فيه بأنه كان : « أشعر العلماء وأعلم الشعراء » ومن أشهر مؤلفاته الجمهرة والاشتقاق .

٣ — الوَرْغى : أورد التونسى في ص ٢٣ و٢٤ ثلاثة أبيات للورغى ولم يحقق ناشرا الرحلة نسبة قائلها إلى وَرْغة كما لم يترجما له ، واكتفيا بالقول بأنهما نقلا ضبط كلمة ورغة عن ترجمة بيرون الفرنسية للرحلة . وورغة هى ناحية قريبة من بلدة الكاف شمال غربي تونس وكتب عن هذا الشاعر محمود أصلان في الفصل الذى كتبه تحت عنوان : نظرة عامة إلى الأدب التونسى وذلك في المجلد الخاص بتونس في الموسوعة الفرنسية المسماة بالموسوعة الاستعمارية والبحرية (باريس سنة ١٩٤٨ م ص ٤٨٠ : ٤٨٦) والذى جاء فيه ما ترجمته أن الورغى من إقليم ورغة قرب الكاف كان شاعراً بالغ الرّقة في شعره كما كان ناثراً موهوباً . وقد اتصل بخدمة الوالى على باشا ، ونظم في مدحه من القصائد ما سارت به الركبان في أرجاء البلاد التونسية كافة » . كما ترجم له صاحب شجرة النور الزكية[1] حيث وصفه بأنه « عالم تونس المحقق وشاعرها المفلق ، الكاتب البليغ نشأ في اكتساب العلم وطلب الأدب حتى صار إماماً فيه ، له ديوان اشتمل على نظمه الرائق ونثره الفائق ، شاهدٌ بنبله وقوة عارضته وفضله ، توفي سنة ١١٩٠ هـ » .

٤ — الشيخ ابراهيم الرياحى : أشار إليه التونسى بقوله : «شيخنا وشيخ المشايخ الآن بتونس » . ولم يترجم له المحققان لتعريف القارئ به ، وكان لايزال على قيد الحياة عندما دون التونسى رحلتيه السودانيتين فيما بين سنتى ١٨٣٥ و ١٨٤١م ، أورد له مخلوف[2] ترجمة ضافية جاء فيها أنه ولد سنة ١١٨٠ هـ وتوفي سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) كان من أعلام علماء تونس

---

(١) لمحمد بن محمد مخلوف ، المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ ص ٣٤٨ رقم ١٣٨٤

(٢) شجرة النور الزكية ، القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ ص ٣٨٦ : ٣٨٩ رقم ١٥٥٥

ورئيس مفتيها وإمامها وخطيبها بالجامع الأعظم، اجتمع بأعلام الإسكندرية والحرمين له ديوان خطب وديوان شعر ومؤلفات فقهية وصوفية .

٥ ــ الشيخ على الدرويش : استشهد التونسى بأبيات له لم يرجع ناشراً الرحلة في تحقيقها إلى ديوانه الذى نشره تلميذه مصطفى النجارى وطبعه طبعة حجرية في القاهرة في سنة ١٢٨٤ هـ ، ولم يورد المحققان حاشية موجزة في ترجمته . وقد ولد الدرويش في القاهرة في سنة ١٢١١ هـ وتوفي سنة ١٢٧٠ وكان يعرف بشاعر عباس الأول والى مصر، ترجم له السندوبي في كتابه أعيان البيان وأورد نبذاً من نثره وشعره .

٦ ــ الشيخ محمد شهاب الدين : ذكر التونسى التاريخ الشعرى لمحمد شهاب الدين المصرى في السبيل الذى أنشأه محمود أفندى بالمحروسة، وبالرجوع إلى ديوانه[1] وجدنا بيتين آخرين بين ما أورده التونسى وهما : وانظر إلى رونق راقت محاسنه ــ وطالع العز والإقبال مسعود ـ شادته ، أيدى فريد لا نظير له ــ أخلاقه البر والإحسان والجود .هذا وصدر البيت الأخير ورد في الديوان برواية مخالفة لما أورده التونسى[2] ولم يكتب المحققان حاشية موجزة عن هذا الشاعر الذى ولد بمكة سنة ١٢١٠ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٧٤ هـ وهى السنة التى توفي فيها التونسى ، ترجم له السندوبي في كتابه أعيان البيان وأورد نبذاً من شعره وثبتاً بمؤلفاته .

٧ ــ الحسن محمد المهلبى : تمثل التونسى بأبيات له عدها بيرون في طبعته من بحر الهزج وأصلحها المحققان بأنها من الوافر ومن الثابت أن التونسى لايخطئ مثل هذا الخطأ وقد أضاف بيرون إلى خلطه في بحور الشعر خطأ آخر في النحو إذ كتب في صدر البيت الأول « ألاموتاً » . وكان يحسن بالمحققين أن يكتبا حاشية موجزة عن المهلبى الذى وزر لمعز الدولة البويهى في سنة ٣٣٩ هـ

---

(١) القاهرة سنة ١٢٧٧ هـ ص ٢٤٥ و ٢٤٦

(٢) صدر البيت الأخير فى ص ٢٤٦ من الديوان : « وهاتفات المنى قالت مؤرخة » . وفى رواية التونسى : وانظر الى حسنه والسعد أرّخَهُ .

وقد ترجم له ابن خلكان وذكر قصة الأبيات الأربعة التى ارتجلها عندما كان يعاني شدة عظيمة . وهى بطولها في الوفيات ورواية ابن خلكان للبيت الذى صدره : « ألا رَحِمَ المهيمن نَفس حر أجود من رواية التونسى ، هذا وقد توفي المهلبي في سنة ٣٥٢ هـ .

٨ ــ محمد بن نصر الدين بن عُنَين : ذكر التونسى هذا البيت :

لقد خانت الأيام فيك فقربت يوم الردى من ليلة الميلاد

ولم ينسبه لقائله وذكر الصفدى في شرحه على لامية العجم أنه لابن عُنين المتوفي سنة ٦٣٠ هـ ، ترجم له ابن خلكان ، وذكر المحققان أن عَجُز البيت من الرجز وصحته من الطويل كما في الأصل .

٩ ــ شهاب الدين العزازى : أورد التونسى بيتين من الشعر أولهما : عجباً لمولود قضى من قبل أن يقضى لأيام الصبا ميقاتا . ولم يذكر قائلهما وقد أوردهما الصفدى في شرحه على لامية العجم وبينهما بيت ثالث وذكر أن هذه الأبيات من نظم شهاب الدين العزازى الذى ترجم له ابن شاكر في فوات الوفيات وقال بأنه توفي سنة ٧١٠ هـ كما ترجم له ابن تغرى بردى في المنهل الصافي (جاص ٣٤٠ : ٣٥٢)

١٠ ــ على بن محمد التهامى : أورد له التونسى بيتاً من الشعر في رثاء ولده وهو من قصيدة مطلعها : « حكم المنية في البرية جار » أوردها بطولها العاملى في الكشكول . وترجم ابن خلكان للتهامى ونقل عن ابن بسام في الذخيرة استجادة الأخير لشعره ، توفي التهامى بالقاهرة سنة ٤١٦ هـ

١١ ــ الشيخ عرفه الدسوقي : ذكره التونسى في ص٣٦ من التحقيق . كان من أعلام علماء الأزهر توفي سنة ١٢٣٠ وترجم له الجبرتي في تاريخه وذكر تآليفه وأورد قصيدة الشيخ حسن العطار في رثائه .

١٢ ــ الشيخ محمد الأمير الكبير : أشار إليه التونسى وقال بأن والده حضر عليه في الأزهر هو والشيخ عرفه الدسوقي ووصفه قائلاً « شيخ مشايخنا

العالم الأوحد » . ترجم له الجبرتي وقال بأنه صنّف في كثير من العلوم وكانت تصانيفه موضع الإجلال والثقة لما امتازت به من براعة التحرير وقوة التحقيق حتى لقد كان بعض أشياخه إذا غُم عليهم الأمر في إحدى مسائل العلم راجعوا ماكتب فيها الأمير ، ومصنفاته شروح في فقه المالكية وعلم العربية ، توفي سنة ١٢٣٢ هـ وأشار الجبرتي في ترجمته إلى ولده محمد الأمير الصغير

١٣ ــ كمال الدين بن النبيه : تمثل التونسي في ص ٣٨ من التحقيق ببيتين من الشعر لم يذكر قائلهما وصدر الأول : « الناس للموت كخيل الطراد ، ذكرهما الصفدي مع بيت ثالث في شرحه على لامية العجم ونسب الأبيات لابن النبيه الذي ترجم له ابن شاكر في الفوات وقال بأنه مدح بني أيوب وتوفي بنصيبين في سنة ٦١٩ هـ وهناك ثلاثة أبيات أخرى تكمله لما ذكره الصفدي وردت في المنتخب والقصيدة بطولها في ديوانه ص ٩ و ١٠

١٤ ــ صلاح الدين الصفدي : تمثل التونسي في ص ٤٢ من التحقيق ببيتين أولهما : « سافر تنل رتب المكارم والعلا فالدر سار فصار في التيجان» ولم يذكر قائلهما . وذكر الصفدي هذين البيتين في شرحه على لامية العجم وقال بأنهما من نظمه . ورواية الصفدي تخالف قليلاً ما تمثل به التونسي فالبيت الثاني عند الأخير : والبدر لولا سيره في أفقه ماكان إلا زائد النقصان ونَصّ ماقاله الصفدي من نظمه : وكذا هلال الأفق لوترك السُّرى ما فارقته مَعَرَّة النقصان . هذا والصفدي من أعلام القرن الثامن توفي سنة ٧٦٤ هـ ترجم له ابن حجر في الدرر الكامنة وابن العماد في شذرات الذهب وقال ابن كثير عنه في البداية والنهاية إنه « كتب الكثير من التاريخ واللغة والأدب وله الأشعار الفائقة والفنون المتنوعة . » وأورد التاج السبكي في طبقات الشافعية ما كان بينهما من المراسلات وأشهر مؤلفاته معجمه الضخم في التراجم وهو الوافي بالوفيات وشرحه على لامية العجم للطغرائي ومعجم في تراجم المكفوفين أسماه نَكْت الهِمْيان في نُكت العِمْيان .

١٥ ــ الحسين بن علي الطغرائي : قال التونسي في ص ٤٢ من التحقيق : ولله در الطغرائي حيث يقول . . ثم أورد بيتين من قصيدته المعروفة باسم

لامية العجم ومطلعها أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطَل ، أوردها بطولها كل من ياقوت في معجم الأدباء وابن خلكان في وفيات الأعيان . وقد ترجم له أيضاً ابن تغرى بردى في وفيات سنة ٥١٤ هـ وأورد ما قاله الدهبي في حقه من أنه كان أفصح الفصحاء وأفضل الفضلاء وأمثل العلماء .

١٦ــ ابن حجر الشافعى : قال التونسى إنه تذكر بهذه الألغاز « ما ألغزبه خاتمة المحققين الإمام ابن حجر الشافعى من أبيات في لغز مُدام (ص ٤٦ من التحقيق) . وسواء أقصد التونسى ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ هـ صاحب معجمات التراجم الموسوعية في سير الصحابة ورواة الحديث وغيرها أم قصد سَميّه ابن حجر الهيثمى المتوفي سنة ٩٧٤ هـ صاحب الصواعق المحرقة والزواجر عن اقتراف الكبائر وكلاهما يلقب بشهاب الدين ومن فقهاء الشافعية ويمكن أن يقال في حق كل منهما إنه كان خاتمة المحققين فإنا لم نجد في مؤلفاتهما ولا في ترجمة السخاوى للأول وترجمة العيدروسى للثاني في النور السافر هذه الأبيات . وقد وردت في كتاب حلبة الكميت للنواجى على أنها من نظم صلاح الدين الصفدى .

١٧ ــ خليل بن إسحاق : ذكر التونسى في ص ١١٦ من التحقيق كتاب المختصر في الفقه المالكى للشيخ خليل بن إسحاق ، وكان يحسن بالمحققين كتابة حاشية عن هذا الفقيه المصرى الذى نال كتابه المختصر تلك الشهرة الواسعة في شمالى إفريقية ووسطها وغربيها ، ونظراً لأهميته عنيت وزارة الحربية الفرنسية بترجمته وقام بهذه الترجمة بيرون نفسه . وقد وصف ابن فرحون خليل بن إسحاق في كتابه الديباج المذهب وكان معاصراً له . بأنه « كان صدراً في علماء القاهرة مجمَعاً على فضله وديانته أستاذاً ممتعاً من أهل التحقيق . . . ألّف مختصراً في المذهب قصد فيه إلى بيان المشهور مجرداً عن الخلاف ، جمع فيه فروعاً كثيرة مع الإيجاز البليغ وأقبل عليه الطلبة ودرسوه » وأشار أحمد بابا التمبكتى المتوفي سنة ١٠٣٦ هـ في كتابه نيل الابتهاج إلى عكوف الناس شرقاً وغرباً على دراسة مختصر خليل وأنه لسعة انتشاره كثرت

عليه الشروح والتعاليق حتى وضع عليه أكثر من ستين تعليقاً . هذا وقد توفي خليل في سنة ٧٦٧ هـ .

١٨ — أبو عبد الله مغلطاى : ذكر التونسى في ص ١١٧ من التحقيق أن عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور أمر والده الشيخ عمر التونسى أن يكتب شرحاً على الخصائص التى ألّف متنها مغلطاى التركى ، فكتب شرحاً عظيماً سماه الدرة الوفية على الخصائص المحمدية . وكان يحسن بالمحققين أن يشرحا معنى الخصائص التى يقصد بها في السيرة النبوية ما مَيّز الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام من الفضل والكرامة . ومؤلفها من أعلام القرن الثامن توفي سنة ٧٦٢ هـ تولى مشيخة الحديث في القاهرة وله مؤلفات كثيرة منها مصنف في السيرة أسماه : الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم ، ومما يسترعى النظر في اهتمام سلطان دارفور بشرح كتاب مغلطاى وذلك في أواخر القرن الثامن عشر أنه يدلنا على اتساع انتشار الثقافة العربية الإسلامية في البلاد السودانية.

١٩ — أحمد الزانتى[1] : دلل التونسى في ص ١١٨ من التحقيق على براعة سلطان دارفور بما صنعه في إحباط مؤامرة زوانه كاشف التى بدأها بقوله : « فمن حسن تدبيره أنه لما دخلت الفرنساوية مصر ، وهرب الغز عنها توجه إلى دارفور منهم كاشف يسمى زوانة كاشف قيل إنه من مماليك مراد بك أو هو أحد كُشّاف الألفى . . . » وهذا خطأ من التونسى لأن ذلك الذى يسمى زوانة كاشف كان قد ذهب إلى دارفور قبل دخول الفرنساوية مصر. كما أنه لم يكن من طبقة المماليك وإنما كان يونانياً يعمل في خدمة مراد بك وكان بوسع محققى الرحلة أن يصححا هذا الخطأ لأنهما رجعا إلى رحلات برون Browne الذى فصّل لنا أسباب رحلة الزانتى إلى دارفور وتاريخ قيامه بها في نوفمبر سنة ١٧٩٦[2]م أى قبل حملة بونابرت على مصر بما يقرب من سنة ونصف سنة .

---

(١) نسبة الى جزيرة زانته Zante احدى الجزر الأيونية غربى بلاد اليونان .

(٢) رحلات برون ص ١٥٦

والمقال الذى نشره أوريان في مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية في سنة ١٩٢٦ عن أحمد الزانتى والذى أدرجه المحققان في ثبت مصادرهما دون الرجوع إليه ، أورد فحواه بوليتيس Politis في كتابه : « الهلينية ومصر[١] الحديثة » وختمه بقوله : « ولقد حكى لنا أوريان في دراسة شائقة تقلبات الأحوال التى صادفها أحمد الزانتى في دارفور ، وكيف أنه اكتسب ثقة السلطان وكيف دبر مشروعاً لخلعه والجلوس على العرش مكانه ، ولكن خانه الحظ كما خانه أولئك الذين استودعهم سره ، فذُبح مجللاً الخزى في الأرض التى حَلُمَ بفتحها » . هذا وخطأ التونسى الذى أشرنا إليه آنفاً نقله عنه كل كل من آركل A. J. Arkell في كتابه تاريخ السودان إلى سنة ١٨٢١م[٢] وروبير كورنفان R. Cornevin في كتابه المطول عن تاريخ شعوب إفريقية السوداء[٣] ونص عبارتهما أن السلطان عبد الرحمن كان على وشك أن يخلع عن عرشه بواسطة أحد المماليك الذين طاردتهم الجنود الفرنسية من إقليم الدلتا .»

٢٠ ــ أبو عبد الله القرطبي : ذكر التونسى في ص ١٢٦ من التحقيق أن الفقيه مالكاً كان يقرأ في تذكرة القرطبي وكان يحسن بالمحققين أن يعرفا القارئ بكل من التذكرة ومؤلفها . وقد ترجم للقرطبي كل من ابن فرحون في الديباج والمقرى في النفح وقالا بأنه كان من عباد الله الصالحين . . أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف ، أشهر مؤلفاته الجامع لأحكام القرآن توفي سنة ٧٦١ هـ بمنية ابن خصيب بمصر ، أما التذكرة بأمور الآخرة التى يشير إليها التونسى فقد اختصرها عبد الوهاب الشعراني المتوفي سنة ٩٧٣ هـ .

٦ ــ تقويم النص العربى للرحلة مع اضافة بعض الشروح والتعليقات :

ليس لدينا لتقويم النص العربي لرحلة التونسى إلى دارفور سوى النسخة التى كتبها بيرون بخطه وطبعها على الحجر في باريس في سنة ١٨٥٠ م وذكر

---

(١) باريس جـ ١ سنة ١٩٢٩م ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) لندن سنة ١٩٥٥ ص ٢٢٣ وكنت أنتظر أن يصحح آركل هذه الغلطة فى الطبعة الثانية المنقحة لكتابه التى صدرت فى لندن سنة ١٩٦١ م ولكنه تركها على حالها .

(٣) باريس سنة ١٩٦٠م ص ٣٤٣ ويلاحظ أن عبارة كورنفان منقولة بالحرف الواحد عن آركل .

بيرون في مقدمته للترجمة الفرنسية للرحلة التى نشرها قبل هذا التاريخ بخمس سنوات قوله : « وجمعت الكل بيدى ونسخت منه نسخة صحيحة أعدتُ قراءتها على الشيخ » . فعند بيرون أولاً : أن النسخة التى كتبها بخط يده صحيحة ، ثانياً يزيد من صحتها أنه أعاد قراءتها مع الشيخ التونسى ، ويفهم من ذلك أن التونسى أقر نسخة بيرون فكأن الأخيرة مساوية للأصل . وليست لدينا للأسف النسخة الأصلية التى كتبها التونسى بخط يده لمناقشة دعوى بيرون، غير أن النقد الداخلى للنص الذى نشره بيرون يمكن أن يحل لنا هذه المشكلة ، فالنص العربي الذى نشره بيرون يزخر بأغلاط متنوعة يمكن تصنيفها فيما يلى :

(١) أخطاء نحوية (٢) أخطاء إملائية ، والنوع الأول والثاني لايصدر إلا عن المبتدئين في تعلم العربية : ٣ أخطاء لغوية لايعقل صدورها عن رجل مثل التونسى يعتبر من فقهاء اللغة العربية كان في عصره رأساً في علومها . (٤) أخطاء عروضية تدل على الخلط في بحور الشعر ، بل هناك أخطاء في كتابة الأبيات تمسخ معانيها وتؤدى إلى كسر أوزانها ولا يعقل صدورها عن التونسى الذى كانت له ملكة في تذوق الشعر ونظمه بدليل الأبيات الكثيرة التى أودعها رحلته (٥) تصحيفات كثيرة خاصة بإعجام الكلمات سنهمل ذكرها في التصويبات

وليس أمامنا إزاء هذه الأخطاء إلا أن نفترض أحد أمرين : إما أن هذه الأخطاء بل السقطات كانت موجودة في الأصل الذى دونه التونسى ونقله بيرون على علاته وعند ذلك تبرأ ساحته لأن ناقل الكفر ليس بكافر ، وإما أن بيرون أخطأ في النقل وأهمل إجراء التصويبات التى أشار بها التونسى عندما قرأ عليه بيرون النسخة التى خطها بيده وكان خطأه وإهماله راجعين إلى ضعف مستواه في علوم العربية ونظراً إلى أن جانباً كبيراً من هذه الأخطاء لايصدر إلا عن مبتدئ في دراسة العربية فإنا نميل إلى الأخذ بالرأى الثاني .

غير أن المحققين درجا فيما كتبا من الحواشى تعليقاً على هذه الأخطاء إما أن يشيرا إليها بعبارة كذا في الأصل للتنصل من تبعتها وترك المسألة معلقة بين المؤلف والناقل فلا يدرى القارئ أيهما يعد مسئولاً عنها ، وإما أن

يزعما أن المقصود هو الاستعمال العامى وليس الفصيح ، ثم يلصقان التهمة صراحة بالتونسى بقولهما : « ومن هذا وكثير غيره نلاحظ أن المؤلف يزاوج كثيراً بين الفصحى والعامية في أسلوبه » . وكأنما يوحيان إلى القارئ بأن الكثرة الغالبة من هذه الأخطاء قد صدرت عن المؤلف نفسه ، وطوراً يحاول المحققان أحياناً التصويب فتسفر المحاولة عن خطأ جديد . والاستعمالات العامية في رحلة التونسى تكاد لاتتجاوز إثنين أحدهما استعمال كلمة وحاشة بمعنى قبح الملامح والثاني استعمال كلمة حيلته بمعنى الأشياء التى يقتنيها الإنسان كما في قوله : « وقد انكسرت سفينته وضاع ماكان حيلته » . وقد اضطر التونسى إلى استعمال هذه الكلمة مراعاة للسجع ، وفي سبيل السجع أيضاً أغفل مراعاة قواعد النحو في مثل قوله : « نفسد ما به من النخيل وذهب رونقه بعد أن كان جميل » بدلاً من جميلاً . وفي مثل قوله : « فاعتذر بعذر ساقط لايجد له لاقط » . بدلاً من لاقطاً . وفي قوله : « بين أقوام لاأعرف من حديثهم إلا القليل ، ولا أرى فيهم وجهاً صبيحاً جميل » . بدلاً من جميلاً . ونرى أن ما تورط فيه التونسى من أخطاء إنما يعزى إلى الطريقة التى جرى عليها الكتّاب منذ عهد القاضى الفاضل وصديقه عماد الدين الأصفهاني من تعشق لالتزام السجع[1] حتى صار للسجع ضرورة كضرورة الشعر يباح فيها للناثر ما يباح للشاعر . ولم تتخلص الكتابة العربية من قيود السجع إلا في العصر الحديث

ونذكر فيما يلى ما نراه في تقويم النص وشرحه والتعليق عليه مكتفين في ذكر المواضع بصفحات التحقيق دون صفحات الطبعة الحجرية :

١ — ص ٢ : تمثل التونسى ببيت صدره : تبيت الأسد في الغابات جوعاً. وفي طبعة بيرون أن هذا البيت من الرجز وصحته كما أوضح المحققان أنه

---

(١) ظهر ذلك قبل عصر القاضى الفاضل ووصف بأنه ما خف على السمع غير أن أبا العلاء فى رسالة الغفران أورد فواصل مسجوعة اتبع فيها ما التزمه فى شعره وهو لزوم ما لا يلزم . وتروى فى تعشق السجع نوادر كثيرة من أشهرها فى كتب الأدب ما صنعه الصاحب بن عباد فى عزل قاضى مدينة قم دون أن يصدر منه ما يقتضى عزله . ومن الطريف أن الكتب المترجمة التى أخرجتها بولاق اختيرت لها عناوين مسجوعة ومنها مؤلفات بيرون نفسه فى الطبيعة والكيمياء وهى الأزهار البديعة فى علم الطبيعة والجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية .

من الوافر وكان من واجب المحققين أن يكتبا حاشية عن هذا التصويب والإشارة إلى خطأ بيرون .

٢ — ص ٣ : كتب بيرون بيتاً من الشعر في متن رحلة التونسى على أنه نثر ، وجاراه المحققان في هذا الخطأ وكان أولى بهما أن يكتباه هكذا :

وإن إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المحيا

٣ — تمثل التونسى بخمسة أبيات في أعلى ص ٣ ومطلعها : لَقَلْعُ ضرس وضَنك حَبس ونَزْع نفْس وورد رَمْس . وكتب بيرون أنها من الرجز ولم يصحح المحققان خطأه لأنها من مُخَلع البسيط .

٤ — ص ٢ : « فتراه يرفع كل غمر جاهل » . اقتصر المحققان في ضبط كلمة غمر على فتح الغين المعجمة ولاستيفاء ضبطها كان يحسن إيراد ماكتبه صاحب القاموس من أن الكلمة تُثَلّث وتحرّك واستدرك عليه الزبيدى في التاج من أن الفتح والضم والتحريك هو المنصوص عليه في الأمهات اللغوية وأما الكسر فغير معروف . وعلى ذلك يحسن الإشارة هنا إلى أنه يجوز ضم الغين . وقد اقتصر على إيرادها بالضم كل من المصباح ومختار الصحاح ومن العجيب أن محققى المعجم الوسيط لم يذكروا سوى الفتح والتحريك !

٥ — ص ٣ : « جوده ناسخ لكل الوجود » . يلاحظ أن كلمة الوجود هنا تكسر وزن البيت كما أنه لا معنى لنسخ الوجود كله بسبب الجود فضلاً عن أنه كفر ، والأبيات كما هو ظاهر من تقديم التونسى لها أنها من نظمه . وقد أخطأ بيرون في النقل لخلطه بين الوجود والجود ولعدم معرفته بالعروض ، ومما يستقيم به المعنى والوزن هو : جودُه ناسخ لكل الجود .

٦ — ص ٥ : علق المحققان في الحاشية رقم ١ أن المقصود ببلاد السودان في عنوان كتاب التونسى هو دارفور وفي الحق أنه يشمل أيضاً رحلة التونسى إلى وَدَاى هذا مع العلم بأن دارفور ووَدَاى لا يستأثران وحدهما بهذه التسمية وهى بلاد السودان التى تطلق أيضاً على على بورنو أو كانم وبلاد التكارير . ونرى أن عنوان تشحيذ الأذهان قصد به التونسى إطلاقه على رحلتيه فالرحلتان

هما في الحقيقة كتاب واحد وتقسيمهما إلى كتابين إنما هو من صنع بيرون يؤيد ذلك قول بيرون نفسه في رسالته السادسة إلى موهل بتاريخ ٢٨ مارس سنة ١٨٤٢م: « إنني أرسل إلى مسيو جومار بقية الجزء الأول من رحلة السودان أى رحلة دارفور ». وأعاد هذا المعنى في رسالته العاشرة إلى موهل بتاريخ ١٢ يوليو سنة ١٨٤٥م حيث يقول : « إن الجزء الأول من هذه الرحلة يطبع كما تعلمون بعناية مسيو جومار الذى ضحى في سبيل نشره من وقته وجهده وماله » . أما ما جاء في العنوان خاصاً بالعرب فليس مقصوراً كما زعم المحققان على القبائل العربية في السودان : دارفور ووَدّاى ولكنه يشمل أيضاً البلاد العربيه في إفريقية لأن رحلتى التونسي تتضمنان إشارات غير قليلة عن مصر وتونس وطرابلس . هذا ولم يشرح المحققان كلمة سيرة في العنوان ، ومن معانيها اللغوية الطريقة وشرحها الزبيدى بقوله : يقال سار الوالى في رعيته سيرة حسنة وأحسن السير وهذا في سيرة الأولين ، والسيرة النبوية وكتب السير مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة . ونضيف إلى ذلك أن رحلة الحَيمى إلى الحبشة اسمها : سيرة الحبشة .

٧ — ص ٨ : « وسطت عليها سطوة الحجاج » . وكانت في الأصل : وبسطت عليها ولا ندرى لم غيرها المحققان مع أنها أصح ، فبسط الشيء يبسطه بسطاً من باب نصر نشره ، ومن المجاز : بسط إليه يده بما يحب ويكره ، مدها . وكان يحسن تشكيل كلمة الحجاج ليتنبه القارىء إلى أن المقصود هو الحجاج بن يوسف الثقفى حاكم العراق في عهد عبد الملك بن مروان وإبنه الوليد .

٨ — ص ٨ : شرح المحققان كلمة هميان بأنها وعاء للدراهم نقلاً عن القاموس مع أن نص عبارة مؤلفه لم ترد فيها كلمة وعاء ، إذ قال عن الهميان بكسر الهاء وسكون الميم بأنه التكة والمنطقة وكيس للنفقة يُشدّ في الوسط . وفات الفيروز أبادى أنه فارسى مُعرّب كما ذهب إلى ذلك الجواليقى في المعرّب وأكده شير الكلدانى في الألفاظ الفارسية المعربة .

٩ — ص ٩ : « هذه طيبة هذى الكتب » ضبط المحققان كلمة الكتب بالتاء المثناة وصحتها بالثاء المثلثة جمع كثيب . وفي البيت التالى أثبت بيرون في طبعته الهمزة في كلمة الزرقاء مما يؤدى إلى كسر الوزن ، وهذا دليل على جهل بيرون بالعروض .

١٠ — ص ١٠ : الأبيات التى تبدأ بهذا الصدر : « يغدو الفقير وكل شيء ضده » . أخطأ المحققان في ضبط الدال في ضده بالفتح ، وهناك روايات أخرى لهذه الأبيات أثبتها الأبشيهى في المستطرف ونسبها لابن الأحنف .

١١ — ص ١٣ : أبيات المقامة الدينارية أوردها بيرون على غير الترتيب الذى ورد في مقامات الحريرى وحواشى المحققين مطابقة لشرح إبراهيم عبد الغفار الدسوقي دون إشارة إلى نقلهما عنه وعلينا أن ننوه بذكر الدسوقي أحد أعلام الأزهر وجهابذة اللغة في القرن الماضى وقد عاون المستشرق لين في عمل معجمه العربي الإنجليزى فهو قسيمه في الفضل وترجمة الدسوقي الذاتية أوردها على مبارك في خططه (جـ ١١ ص ١٠ : ١٣) .

١٢ — ص ٣٠ : ضبط المحققان كلمة يتم في عجز البيت : « بمماته يتم الكرام » على اعتبار أن يتم فعل ماض وصوابه يُتم الكرام .

١٣ — ص ٣١ و ٣٢ : ذكر التونسى خال أبيه بأنه العلامة الرحل سليمان الأزهرى ، وكتب المحققان عن كلمة الرحل : كذا في الأصل ، وقد أخطأ بيرون في النقل عن نسخة التونسى ولم يهتد المحققان إلى صحتها ثم رجحا في باب التصويبات أن المقصود هو الرحالة . وما أبعد كل هذا عن مراد المؤلف والصواب هو الرُّحلة بضم الراء والعلاّمة الرُّحلة هو الذى يرتحل إليه الطلاب من الآفاق للأخذ عنه .

١٤ — ص ٣٦ : ذكر التونسى تاريخ مولده بأنه كان « في الساعة الثالثة من يوم الجمعة منتصف ذا القعدة سنة ١٢٠٤ هـ » ولم يصحح المحققان كلمة « ذا » التى أخطأ بيرون في إيرادها . ثم ذكر المحققان في الحاشية أن السنة

الميلادية الموافقة لسنة ١٢٠٤هـ هى سنة ١٧٨٩ م مع أن التاريخ الذى يوافق ضبطاً ١٥ ذى القعدة من هذه السنة هو ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٠ م .

١٥ — ص ٤٦ : في عجز البيت : « بها الهداية في داج لنا بَهم » . ضبط المحققان كلمة بهم بفتح الباء الموحدة وكسر الهاء وليست بهذا الضبط في المعجمات وصحتها بُهم بضم الباء وفتح الهاء جمع بُهمة والبهمة من الليالى هى تلك التى لا يطلع فيها القمر .

١٦ — ص ٥٠ : فقطعناها عَنقاً وذَميلاً . لم يشرح المحققان العنق واللفظان من أنواع السير التى فصّلها الثعالبي في فقه اللغة .

١٧ — ص ٥٠ : «ثم ارتحلنا صبيحة اليوم الثالث بعد ملء أدوات الماء » . أخطأ المحققان في إغفالهما تصويب الخطأ في كلمة أدوات الذى تورط فيه بيرون وصحتها أَدَاوَى على وزن فتاوَى وهى جمع إداوة بالكسر وهى إناء صغير يُحمل فيه الماء ، أما الأداة فهى الآلة والجمع أدوات ولا معنى هنا لملء أدوات الماء أى آلات الماء والمقصود هو ملء الأداوى أى الأواني الصغيرة التى يُحمل فيها الماء .

١٨ — ص ٥٢ : « وكانوا أتوا لهذا البئر ليأخذوا منه ملحاً » . وفي نسخة بيرون : ليأخذون مما يدل على جهله باللغة العربية .

١٩ — ص ٥٣ و ٥٤ : « نأخذ من أول الليل قطعة ومن آخره دلجة » . هكذا ضبط المحققان كلمة دلجة وأوردا في الحاشية ما جاء في القاموس من أن « الدلجة السير في أول الليل » . وعقبا بقولهما إن المؤلف جعلها السير في آخره ، أى أن المحققين وصما التونسى بأنه يجهل التفرقة بين ما يطلق على السرى في أول الليل وفي آخره . وعبارة صاحب القاموس في هذا الصدد نراها غير وافية إذ اقتصر على القول بأن الدلج محركة والدلجة والدلجة بالضم والفتح السير من أول الليل وقد أَدلجوا أى ساروا من أول الليل فإن ساروا من آخره فادلجوا بالتشديد وقد استدرك الزبيدى في تاج العروس ما فات الفيروز أبادى يذكره وأورد تعليقاً مطولا يستغرق نحو صحيفتين يعد بحثاً في فقه اللغة العربية

إذ ذكر إنكار بعض اللغويين لهذه التفرقة محتجاً بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم بالدُلجة فإن الأرض تُطوىَ بالليل ، حيث لم يفرق فيه بين أول الليل وآخره . (وقد ذكر ذلك ابن الأثير في النهاية حيث قال ومنهم من يجعل الادّلاج بتشديد الدال لليل كله ولم يفرق بين أوله وآخره وأنشدوا لعلى رضى الله عنه : اصبر على السير والإدْلاج في السحر وفي الرواح على الحاجات والبُكُرِ فجعل الإدْلاج بتسكين الدال في السحر) . ثم ذكر الزبيدى أن ابن درستوَيه أنكر التفرقة بين الإدلاج بالتسكين والإدلاج بالتشديد من أصلها فمعناهما معاً سيرُ الليل مطلقاً دون تخصيص بأوله أو آخره . فالأمثلة عند جميعهم موضوعة لاختلاف معاني الأفعال في أنفسها لا لاختلاف أوقاتها ، فأما وسط الليل وآخره وأوله فمما لا تدل عليه الأفعال ولا مصادرها . ثم قال ابن درستويه : « ومما يوضح فساد تأويلهم أن العرب تسمى القنفذ مدلجاً لأنه يدرج بالليل لا لأنه لا يدرج إلا في أول الليل أو في وسطه أو في آخره ، ولكنه يظهر في أى أوقاته احتاج إلى الدروج لطلب علف أو ماء أو غير ذلك » ويتضح مما سبق أن المحققين اقتصرا على ما ذكره صاحب القاموس من أن الدلجة تصدق فحسب على السير فى أول الليل مع أنها تصدق على السير في أى وقت من أوقاته ، كما اقتصرا على ضبطها بالفتح على وزن ضربة ، مع أن الفيروز أبادى ذكرها بالضم أيضاً على وزن جُرْعة .

٢٠ — ص ٥٤ : أشار المحققان في الحاشية رقم ٥ إلى ما ورد عن الزغاوة في مؤلفات المسعودى وابن سعيد والإدريسى وابن خلدون ولم يثبتا مواضع ذكرها في كتبهم . وقد أشار إليهم ياقوت في معجم البلدان (ج ٤ ص ٣٩١ و ٣٩٢) بقوله : إن الزغاوة قبيلة من السودان جنوبي المغرب . ثم ذكر بيتاً لأبي العلاء :

بسبع إماء من زغاوة زوجت من الروم في نعماك سبعة أعبد

وجدناه في القصيدة الثامنة في سقط الزند وشرحه التبريزى والبطليوسى بقولهما إن الزغاوة قبيلة أو جيل من السودان ويهمنا من هذا البيت معرفة أبي العلاء للزغاوة .

٢١ — ص ٥٨ و ٥٩ : « وشوا بي إلى السلطان بأني أبيع الأحرار » . وذكر المحققان في الحاشية أن كلمة الأحرار هى تصويبهما لكلمة الأحرارى في الأصل ، ونرى أن الخطأ مزدوج من كل من بيرون والمحققين ، فالتهمة التى وجهت إلى السيد أحمد بدوى صديق والد التونسى هى بيع النساء الحرائر على اعتبار أنهن إماء وليس المقصود هو بيع الأحرار من الرجال . ومن الطريف أن بيرون فهمها من المؤلف طبقاً لهذا المعنى ، ولكنه لم يستطع إثبات اللفظ العربي الصحيح لضعفه في اللغة العربية والدليل على ذلك أنه أثبت المعنى الصحيح في الترجمة الفرنسية بقوله :

On m'avait accusé de vendre des femmes libres

٢٢ — ص ٥٩ و ٦٠ : « فمكثنا بعد ذلك ثلاثة أيام » . وفي نسخة بيرون : « ثلاثاً أيام » . ليس أدل من هذا على جهل بيرون باللغة العربية .

٢٣ — ص ٦١ : « في عَرْض جبل مَرَّه » . ضبط المحققان كلمة عَرض بفتح العين . والمقصود هنا عُرْض بضم العين فعُرْض الجبل سفحه وعُرْض الشيء بوزن قُفْل ناحيته من أى وجه جئته . ويقال اضرب به عُرْض الحائط أى ارم به أىَّ ناحية كانت .

٢٤ — ص ٧٥ : « وكانت الرعية ترفع شكايتهم لأبيهم فكان لايشكوهم وكتب المحققان : كذا فيما يتعلق بكلمة يشكوهم ، وكان الأولى التصحيح لأن الخطأ من بيرون والصواب هو : فكان لايُشكيهم أو لايُشَكِّيهم من أشكى فلاناً إشكاءً قَبِل شكواه وشَكَّى الشاكى تشكيةً قَبِل شكواه .

٢٥ — ص ٨٧ حاشية رقم ٤ : كتب المحققان : السفِن بكسر الفاء المَلاَّح ، ولم نعثر عليها بهذا المعنى في معجمات اللغة .

٢٦ — ص ٩٠ : أورد التونسى شعراً لعلى الغراب الذى لم يتيسر للمحققين أن يُعَرِّفا القارىء به . وقد ترجم له صاحب شجرة النور الزكية[1] بقوله : هو أبو الحسن الصفاقسى الفقيه العالم الماهر الأديب الشاعر ،

(١) القاهرة سنة ١٣٤٩ ص ٣٤٨ رقم ١٣٨٢

له ديوان شعر كبير من وقف عليه اعترف له بالنبل والنباهة لما اشتمل عليه من التوريات والتشبيهات والكنايات وللناس به اعتناء ، توفي سنه ١١٨٣هـ . وقال عنه محمود أصلان[١] :

Le grand poéte lyrique 'Ali El-Ghorab naquit à Sfax. Venu à Tunis à l'occasion d'une affaire au Divan, il adressa des poémes à de nombreux notables, aux ministres et au souverain 'Ali Pacha. Celui-ci se l'attacha comme secrétaire, et bientôt la notoriété d' 'Ali El-Ghorab s'étendit à toute l'Afrique du Nord, puis à l'Orient.

٢٧ — ص ٩٤ :

« ولا تحتقر كيد الضعيف فربما تموت الأفاعى من سموم العقارب»

هذا البيت الذى تمثل به التونسى هو من مقطوعة نظمها الشاعر عمارة اليمنى المتوفي سنة ٥٦٩ هـ وتقع في سبعة أبيات مثبتة في ديوانه المذيل به كتابه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية[٢] .

٢٨ — ص ١٠٣ : حاشية رقم ٢ : يحسن تشكيل الحُمْر بضم الحاء المهملة وتسكين الميم حتى لاتختلط باسم قبيلة الحَمَر بفتح كل من الحاء والميم .

٢٩ — ص ١١٦ : من أخطاء بيرون عشرة نياق وقد صححها المحققان ،أما « مطلوق السيف » فتركاه دون تصحيح وصوابها : مُطْلَق السيف .

٣٠ — ص ١١٧ : كان يحسن كتابة حاشية لتعريف القارىء بكتاب الآجرومية الذى صنف فيه عمر التونسى والد صاحب الرحلة شرحاً كبيراً وهى من مختصرات النحو الشهيرة ومؤلفها محمد بن داود الصنهاجى المتوفي

---

(١) « نظـرة عامة فى الأدب التـونسى » فى المجلد الخاص بتـونس فى الموسوعة الاستعمارية البحرية (باريس سنة ١٩٤٨ م ص ٤٨٥) .

(٢) نشرهما المستشرق هارتويج ديرنبور فى مدينة شالون بفرنسا سنة ١٨٩٧م (جـ ١ ص ١٣٠ و ١٣١) .

سنة ٧٢٣ هـ ترجم له السيوطى في بغية الوعاة وابن العماد في شذرات الذهب كما كان يحسن التعريف بكتاب السلم المرونق الذى قام بشرحه أيضاً والد التونسى وهو عبارة عن أرجوزة في علم المنطق في ٩٤ بيتاً نظمها الصدر بن عبد الرحمن الأخضرى المتوفي سنة ٩٤١ هـ .

٣١ — ص ١١٧ : « وألّف (عمر التونسى) رسالة في علم الكتف» . هكذا وردت هذه العبارة في نسخة بيرون ، غير أن المحققين توهما أن المقصود هو علم الكف المعروف بالفرنسية باسم Chiromancie وبالانجليزية باسم Palmistry وذلك على الرغم من أن التونسى أدلى بشرح شفوى لهذا العلم لبيرون وأثبت الأخير هذا الشرح في باب « المذكرات والإيضاحات » التى ذيل بها ترجمته للرحلة وختمه بعبارة Note du Cheykh ونص الجملة الأولى في هذا الشرح هو كما يلى :

Il composa un petit livre sur la science des omoplates ou divination par inspection des omoplates. ويلاحظ أن كلمة omoplates الفرنسية مشتقة من كلمة ômes الإغريقية أى كتف وبالفرنسية épaule وكلمة platus أى عريض وبالفرنسية large . وفيما يلى ترجمة حاشية التونسى :

وألّف رسالة في علم الكتف أى التنبؤ عن طريق فحص عظام الأكتاف : « وذلك بأن يوضع أثناء الليل فوق سطح أحد المنازل كتف شاة . ويزعم العرب أن عظم الكتف تظهر عليه بتأثير نجوم السماء علامات وبقع معينة يمكن الاستعانة بها على التنبؤ بالمستقبل . ففى الصباح يزال ما على الكتف من اللحم فتظهر آنذاك بقع هى علامات يزعم العرافون أنهم يعرفون من قراءتها ما سوف يقع من أحداث عامة وخاصة » (مذكرة من الشيخ) وهذا لايدع مجالاً للتصحيف واعتباره علم الكف .

٣٢ — ص ١٢٦ : سطر ناقص لم يثبته المحققان ويقع في نسخة بيرون في نهاية ص ١١٩ وأوائل ص ١٢٠ ونوضحه فيما يلى بين قوسين :

« وصار يذب عنهم وحررهم عند (السلطان كلما وقع منهم أمر مع أعدائهم من القبائل الأخرى[1] وحررهم عند) الدولة » .

٣٣ — ص ١٢٨ : « لايعصاني» . علّق عليها المحققان بقولهما » : «كذا وهى صيغة عامية » . مع أنها في الأصل لايعصى ني » وهو الصواب .

٣٤ — ص ١٤١ : « فهذه أربعة وثلاثون يوماً » . وهذا خطأ من التونسى لأن عدّة الأيام التى سردها هى ستة وثلاثون يوماً [2] .

٣٥ — ص ١٤٩ : « لكن متى جئت دار أباديما تجد الرجال والنساء حسان » . أثبت المحققان كلمة حسان دون تصويب فقد نسى بيرون أن أن المفعول يجب أن يكون منصوباً ، ويلاحظ أن كلمة حسَان جمع حَسَن وحسناء للمذكر والمؤنث .

٣٦ — ص ١٥٦ شرح المحققان كلمة البُخْسة بأنها كلمة عامية سودانية معناها إناء من الفخار يحفظ فيه الماء أو السمن أو العسل والواقع أنها ليست من الفخار فهى من لحاء القرعة الجافة كما شرحها بيرون ني ترجمته الفرنسية بقوله : البخسة قرعة كبيرة جافة فارغة ، فهى وعاء كالزمزمية المستديرة .

٣٧ — ص ١٦٤ : « حتى يدخلون » لم يصححها المحققان واكتفيا بكتابة حاشية كذا ، مع أن الخطأ صدر عن بيرون .

٣٨ — ص ١٨٥ : « وهب لكل إنسان عقلاً يميز به الخير ليتبعه من المكروه ليحذره » صوابه : « يميز به الخير ليتبعه والمكروه ليحذره » .

٣٩ — ص ٢٠٠ : « خصوصاً وأن من كانت له دعوى» . وني الأصل دعوة ، وعسير على بيرون أن يفرّق بين دعوة ودعوى .

---

(١) فى الأصل : الأُخَر . وقد شرح بيرون العبارة الأخيرة فى ترجمته الفرنسية بقوله : أى جعلهم غير خاضعين لسلطة الحكومة .

(٢) هذا وقد كتب بيرون الرقم مصححا فى ص ١٣١ من الترجمة الفرنسية .

٤٠ ــ ص ٢٠٠ : ترجم المحققان في الحاشية ٤ شرحاً أورده بيرون في الترجمة الفرنسية ونسيا أن يترجما عبارة في السطر السابق للأخير تعريبها : « ويجلس السلطان متنقباً ساتراً وجهه كله تقريباً » . كما تصرفا في العبارة الأخيرة وصوابها : « حتى تتعذر رؤيته » .

٤١ ــ ص ٢١٨ : « نوافج المسك » صحّف بيرون كلمة نوافج إذ جعلها بالحاء المعجمة ، وكتب المحققان حاشية نقلاها عن شرح القاموس بأن « كلمة نافجة أى وعاء المسك معربة » . وأكد ذلك الجواليقى والكلداني غير أن صاحب المصباح ذهب إلى أنها عربية . وقال الشيخ أحمد شاكر محقق كتاب المُعرَّب للجواليقى[1] : « وكل هذا دعوى لادليل عليها فإن مادة ن ف ج عربية ، وكل ماارتفع فقد نفج ، ثم استعمل في معان كثيرة ترجع إلى هذا الأصل ، ونافجة المسك لاتخرج عنه » .

٤٢ ــ ص ٢٢٠ : « فإذا حَس بهم زجرهم » : علق المحققان على كلمة حس بقولهما : « كذا بالأصل حَس بغير همزة وسنرى فيما بعد أن المؤلف يستعمل المضارع « أحَسّ » بفتح الهمزة وكلتا الصيغتين عامية » . وما أبعد هذا عن الحقيقة فهنا يمكن تصويب بيرون وتخطئة المحققين لأن حَسّ هنا عربية ، فحَسّ الشيءَ وحَسّ بالشيءِ حسيساً أدركه بإحدى حواسّه .

٤٣ ــ ص ٢٣٣ : « وكلهم منحنيون » صوابها منحنون ، « ولأجل يسمع » صوابها لأجل أن يسمع . وهذه الأخطاء صادرة عن بيرون .

٤٤ ــ ص ٢٣٧ : « حتى يأتون » الأفضل تصويبها « حتى يأتوا » وحذف الحاشية التى كتبها المحققان : « كذا في الأصل بالنون » فمن البديهى أن هذه السقطات لم تكن في نسخة التونسى وماهى إلا نتيجة لضعف مستوى بيرون في اللغة العربية .

---

(١) طبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٦١هـ ص ٣٤١

٤٥ــ ص ٢٦٠ : « وإن الكِبْر يمنعها أن تقول هَيْت لك » . كان يحسن بالمحققين شرح هَيْتَ لك . وقد وردت في سورة يوسف آية ٢٣ ولها قراءات وتفسيرات عدة منها هيت لك أى هَلُمَّ وأقْبل وتعالَ وروى أنها من هاء يهيء مثل جاء يجيء فيكون المعنى في هِئْتَ أى حَسُنْت هيئته ويكون لك من كلام آخر كما تقول : لك أعنى ، وقرئت هِئْتُ لك أى تهيأت لك وتحسنت وتزينت ، راجع القرطبي والكشاف[1] .

٤٦ ــ ص ٢٦٧ : « ولو استقل من البياض بمثلها لااعتاض من ثوب الملاحة عاراً ، أخطأ المحققان هنا خطأ جسيماً في عبارة لااعتاض ، بإثبات لا النافية بدلاً من لام التوكيد مما يخل بالمعنى ويكسر وزن البيت ، والصواب لاعتاض .

٤٧ ــ ص ٢٧٩ : « فإذا تم للمولود أسبوع عملوا له عقيقة » . يحسن شرح العقيقة هنا . وقد أوضحها مجد الدين بن الأثير في النهاية[2] .

٤٨ ــ ص ٢٨٢ : « هذا مع ما ابتليوا به من الفتن » . صوابها : مع ما ابتلوا به من الفتن . والخطأ من بيرون .

٤٩ ــ ص ٢٩١ و٢٩٢ : « وتركه في مكتله » شرح المحققان المكتل بأنه الزنبيل وأورد عنه بيرون حاشية في ترجمته الفرنسية جاء فيها . أنه سلة ذات نسيج متقاطع منسوج من ورق الدوم .

٥٠ ــ ص ٣٠٠ : « وفي سنة ١٢٣٢ هـ رأيت قصيدة لبعض البكريين في حل شرب الدخان وأظن كتابتها في وسط القرن التاسع للهجرة » لاشك أن هذا الظن خطأ من التونسي . وكان يحسن بالمحققين أن يعلقا عليه . فوسط القرن التاسع الهجرى أى سنة ٨٥٠ هـ يوافق سنة ١٤٤٧ م ومن المعلوم أن استعمال التبغ لم يكن معروفاً في الدنيا القديمة قبل كشف كولومب لأمريكا

---

(١) القرطبى جـ ٩ ص ١٦٣ : ١٦٥ دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٣٩ والكشاف للزمخشرى طبعة بولاق سنة ١٢٨١هـ جـ ١ ص ٣٧٧

(٢) جـ ٣ ص ١١٦

في سنة ١٤٩٢ م كما أن عادة التدخين لم تنتشر فور كشف أمريكا في مختلف بلاد الدنيا القديمة بل استغرق ذلك وقتاً يمكن تحديده بالنسبة لبلاد الشرق العربي بنحو قرن من الزمان ، بدليل أننا لانجد ذكراً لمسألة حل الدخان أو تحريمه إلا في معاجم التراجم الخاصة بأعلام القرن الحادى عشر الهجرى . جاء في كتاب طبقات وَد ضيف الله[1] أنه « في أول القرن الحادى عشر ارتبك الناس في التنباك والقهوة فاتفق العلماء على إباحتهما ، واختلفوا في التنباك منهم المحلِّل ومنهم المحرم ، وممن حكم بإباحته الشيخ على الأجهورى والشيخ ابراهيم اللقاني قالا بحرمته ونهى الناس عن شربه ، والشريف عبد الوهاب قال بإباحته وتناظر مع الشيخ إدريس في وجه الشيخ عجيب ، ثم بعد الألف وأول القرن الحادى عشر استعملت الناس شرقاً وغرباً شرب التنباك والبن .

وعلى ذلك فالأشعار التى ذكرها التونسى عن حل الدخان لايمكن أن نرجع تاريخها إلى ما قبل بداية القرن الحادى عشر الهجرى .

٥١ — ص ٢٨١ : « لسلامة أرضه من العفونات والوَخِم » . صوابها الوَخَم بفتح الواو والخاء المعجمة والوَخَم هو تعفن الهواء المورث للأمراض.

٥٢ — ص ٣١٢ : ويُلحُّون لحاءه » هكذا ضبطها المحققان وشرحاها : يقشرون ، والصواب : يَلْحون مضارع الفعل الثلاثي لَحا يلحو لحواً ، لحا الشجرة أى قشرها ، أما ألحَّ فلان على الشيء أى واظب عليه وألَحَّ السحابُ دام مَطَرُه إلخ فلا معنى لها هنا .

٥٣ — ص ٣١ : « زكى الرائحة « غَيَر المحققان ما جاء في الأصل وهو « ذكى الرائحة » بالذال المعجمة ظناً منهما أنه خطأ مع أنه صواب ، يقال : ذكا المِسْك يذكو ذكواً وذكاً فاحت رائحته فهو ذاك وذكىّ .

٥٤ — ص ٣٣٤ : أخطأ المحققان في إيراد شكل النكيس من أشكال الرمل وهو الشكل الرابع إذ جعلا الفرجة بين صَفّى النقط من أسفل ، وصوابها من أعلى كما وردت في نسخة بيرون .

---

(١) طبعة منديل بالخرطوم سنة ١٩٣٠ ص ٧ ، ٨

٥٥ — في ص ٢٠٦ من التحقيق وأواخر ص ١٨٢ من نسخة بيرون فقرة ساقطة من الأصل العربي للرحلة ولكنها مُثْبَتَة في ترجمتها الفرنسية وقد أحسن المحققان بترجمتها إلى العربية متوخين أسلوب المؤلف في تعريبها حتى لاتبدو قلقة مضطربة في موضعها وينتظم بها سياق الرحلة . غير أن المحققين فاتهما مع ذلك أن يترجما الفقرة الصغيرة التالية وها هى ترجمتها : « ويقع على بُعد منها محل الياكورى وإلى اليمين مسكن السلطان أما محل الياكورى فيشتمل صريفُه على سبع أو ثماني سكتايات تقطنها الياكورى نفسها ومن يتبعنها من الجوارى» .

٥٦ — ص ٣٣٣ : « وإذا انجر الكلام إلى علم الرمل فلنذكر منه نبذة ». هذه النبذة المختصرة في علم الرمل التى أوردها التونسى في النص العربي لرحلته أضاف إليها بياناً مفصلاً أدلى به شفاهاً إلى بيرون وترجمه الأخير إلى الفرنسية وذيل به ترجمته الفرنسية للرحلة ويقع في ثلاث صفحات[1] استهلها بيرون بقوله :

Cette explication, beaucoup trop abrégée, a été completée de vive voix, par le cheykh, de la manière suivante.

وكان يحسن بالمحققين تلخيص هذه التوضيحات الإضافية لأنها جزء لايتجزأ من الرحلة وكذلك كتابة حواش عن علم الرمل وغيره من الغيبيات مثل علم الأوفاق وعلم الحروف مذيلة ببعض المراجع العربية والأجنبية عنها .

هذا وقد فات المحققين أن يكتبا في تصديرهما للرحلة عن قيمتها كمرجع للمشتغلين بعلم البشريات الثقافية أو مايُطْلَق عليه إسم **Anthropologie Culturelle** فالفصل الذى عقده التونسى في رحلته إلى دارفور عن السحر والتعزيم والدمازيق وما إليها يزودهم بمادة هامة عن هذه الموضوعات . وقد كانت رحلتا التونسى إلى دارفور ووداى من مراجع بومان **H. Baumann** ووسترمان **D. Westermann** في كتابهما عن شعوب إفريقية[2] وحضارتها » . كما كانتا

---

(١) ص ٣٦٦ : ٣٦٩

(٢) الترجمة الفرنسية عن الألمانية باريس سنة ١٩٥٧م ص ٥٤٠

من مراجع سير جيمس جورج فريزر J. G. Frazer في موسوعته عن السحر التي أسماها « الغصن الذهبي » . وفي النسخة المختصرة لهذه الموسوعة نقل فريزر بالحرف الواحد ما ترجمه بيرون إلى الفرنسية[1] فيما يلي

Il (le Sultan) s'enveloppe la face avec une mousseline, blanche qui fait plusieurs fois le tour de la tête, puis est ramenée sur la bouche et sur le nez, et ensuite sur le front, en telle sorte qu'on n'aperçoit absolument que les yeux.

ونشير إلى ما نقله فريزر مكتوباً بنمط آخر من الحروف :

The same motive of warding off evil spirits probably explains the eustom observed by some African sultans of veiling their faces. ***The Sultan of Darfur wraps up his face with a piece of white muslin, which goes round his head several times, covering his mouth and nose first, and then his forehead, so that only his eyes are visible.*** (٢)

٥٧ — ص ٣٣٩ : ختم[3] بيرون الرحلة بسطور أربعة هي دون شك من إنشائه ولانظن أنه أخذ رأى التونسي في تنميقها . ومن الطريف فيما كتبه بيرون أن عدوى الترام السجع قد انتقلت إليه ، وقد وفق في إيراد فواصل صحيحة للسجعات غير أنه أخطأه التوفيق في سجعة واحدة وهي : « وذلك برسم وخط السيد بيرون ، بنعمة الله وعون » . وكان ينبغي أن تكون « بنعمة الله وعونه » . . وكان يمكن أن ينتظم له السجع لو أضاف إلى ما كتب بضع كلمات كأن يقول : « بنعمة الله الذي نستمد منه كل عون » .

٧ ـ الترجمة العربية للذيل الذي الحقه بيرون بترجمته لرحلة دارفور :

لقد أحسن المحققان في نقل هذا الذيل الخاص بأبي مدين إلى اللغة العربية كما أحسنا في نقل صورة هذا الأمير الفوراوي ولكنهما لم يعرفا القارئ

---

(١) يقع هذا في ص ٢٠٣ من الترجمة الفرنسية للرحلة والنص العربي في ص ٢١٠ من التحقيق .

(٢) يقع هذا النص الذي نقله فريزر عن ترجمة بيرون لرحلة التونسي الى دارفور ص ص ٢٠٠ من النسخة المختصرة لموسوعة الغصن الذهبي ، لندن سنة ١٩٥٩م .

(٣) لم يتيسر لنا في هذه المقتطفات ايراد جميع الاستدراكات التي تبلغ عدتها نحو مائتين . كما تعذر علينا ايراد الترجمة العربية لحواشي بيرون .

بسيرته وما انتهى إليه أمره[1] . كما أن المحققين قد أخطآ عدة أخطاء في الترجمة ونسيا تعريب بعض الأسطر والعبارات ونجمل ملاحظاتنا فيما يلي :

١ — ص ٣٥١ في ترجمة الذيل : وللفقيه المحسى هذا وجه صغير ، وفي الأصل كلمة Physionomie التي ظن المترجمان أن معناها وجه صغير مع أن معناها السحنة أو السيماء أو التعبير الناشئ عن السمات والملامح كما عرّب المترجمان عبارة intelligence rapide أنها .« ذكاء سريع» . وهذا تعبير غير مألوف في اللغة العربية . وكان أولى أن يقال ذكاء متقد أو بديهة حاضرة أو خاطر لماح . كما لم يعرب المترجمان الجملة الأخيرة في الفقرة الفرنسية السابقة وترجمتها : «ولاغرو فإني لم أر بين السودانيين من يماثله في قوة ملاحمه المعبرة ».

٢ — عرب المترجمان عبارة gagne le large في ص ٣٤٨ وعبارة prirent le large في ص ٣٥٠ بأنه أسرع الخُطى نحو البحر (النيل) في الأولى وبأنهم هرعوا إلى ناحية البحر (نهر النيل) في الثانية . ويلاحظ أولاً أن البحر والنيل ونهر النيل لم يرد في الأصل ، ثانياً يفيد هذان التعبيران معنى s'enfuir أى فروا ، أو هربوا أو لاذوا بالفرار أو ولوا الأدبار الخ.

٣ — عرب المترجمان كلمة hameaux في موضعين في ص ٣٤٧ و ص ٣٤٩ على أنها الربي جمع ربوة مع أن معناها : مجموعة من المنازل الريفية البعيدة عن المركز الإدارى للناحية أى قرية صغيرة أقل من الدسكرة ويطلق عليها في لغتنا كفر وجمعها كفور .

٤ — ص ٣٤٨ : « وألقى الأمير أبو مدين بنفسه على تور فيجه » . وفي الأصل أن الذى ألقى بنفسه لم يكن أبا مدين وإنما هو أخوه .

٥ — وردت في نهاية ص ٣٤٥ عبارة « تونج باسى » التي لم يشرحها المترجمان كما لم يدرجاها في معجم المفردات الفوراوية وقد شرحها بيرون

---

(١) أورد ريتشرد هيل ترجمة له فى كتابه معجم لتراجم أعلام السودان (اكسفورد سنة ١٩٥١م ص ٢٦٤) .

في الترجمة الفرنسية بقوله : إن كلمة تونج الفوراوية يراد بها مسكن أو دار وكلمة باسى يقصد بها أخ كما أنها من ألفاظ التشريف وعلى ذلك فإن تونج باسى تفيد : دار الأمراء الإخوة أو دار الأمراء الصغار .

٦ — في ص ٣٧٤ من الأصل الفرنسى جملة لم يعربها المترجمان وترجمتها : إن السلطان لاشتغاله بأمر هذا الزواج والحفل الذى ينوى إعداده له أعطى أخويه الإذن الذى طلباه » . وتقع هذه العبارة في السطر ١٣ ص ٣٤٦ من الترجمة العربية .

٧ — ص ٣٥٢ : « واستقبل الأمير أبو مدين استقبالاً رسمياً . ولا نجد أثراً لكلمة رسمياً » في الأصل الفرنسى في ص ٣٨١ كما لم تكن للأمير أبي مدين عند زيارته لكردفان هارباً من أخيه سلطان دارفور أية صفة رسمية . والأصوب استقبل استقبالا يقتضيه مقامه .

٨ — ص ٣٥٦ من الترجمة : هناك جملة ناقصة لم يعربها المترجمان وهى في رسالة أحمد باشا إلى محمد على وتقع في سطر ٣ و ٤ في ص ٣٨٦ من الأصل الفرنسى وترجمتها : « وأنه يعتقد أنه لا يلزم لنجاح الحملة إرسال قوة كبيرة كهذه » .

٩ — الفقرة الأخيرة في ص ٣٦٤ من الترجمة وص ٣٩٦ في الأصل الفرنسى ، نرى فيها كلمة « أو » بدلاً من واو العطف في الأصل مما يخل بالمعنى ، كما أن الترجمة العربية غير دقيقة ولعل الأفضل أن تكون كما يلى : « وسوف يظل أبو مدين الحاكم المطلق يثبت ملكه ويوطد دعائم نفوذه دون أن يسعى أحد إلى التدخل في شئونه . وأخيراً لا تلبث الجنود المصرية أن تجلو وتعود إلى كردفال إذا ما أبدى رغبته في جلائها » . وقد علق ديهيران[1] H. Dehérain على هذه الفقرة بقوله : « ليس ذاك هو العالم الذى يتكلم

---

(١) السودان فى عهد محمد على ، باريس سنة ١٨٩٨م ص ١٠٢

هنا » معززاً قوله بما كتبه رينان[١] عن بيرون بأنه « كان ذا طبيعة خيرة وأن اتصالاته بمذهب السان سيمونيين أوجدت لديه استعداداً للإستغراق في أوهام تعلقه بالشرق » . ونحن مع اعترافنا بخطأ بيرون في تفكيره السياسي فإنه لم يذهب في تعلقه بالشرق إلى الحد الذي يصوره لنا رينان .

٨ ــ مستوى بيرون في الدراسات العربية :

كتب جاك تاجر[٢] عن بيرون أنه امتاز على سائر الأساتذة الأجانب بإجادة اللغة العربية . وذكر جرجي زيدان[٣] أن التونسي كان يثني على عربية بيرون . ومع إعجابنا بهمة بيرون ،في الدراسات العربية وترجمته لبعض نصوصها ــ وننوه بصفة خاصة بما أسداه من خدمات في تزويد كل من أدب الرحلات العربي والإفرنجي برحلتي التونسي ، إذ لولاه لما أقدم التونسي على تدوينهما ــ فإن علينا أن نقف وقفة قصيرة لتحديد مدى تحصيله في ميدان الدراسات العربية لأنه يتوقف على دراسة هذه النقطة الطريقة المثلى في تقويم النص العربي لرحلة التونسي إلى دارفور . لقد ذكر في مقدمتها أنه جمع ما كتبه الشيخ عن هذه الرحلة ونسخه بخط يده وأعاد قراءته عليه . ونحن نشك في صحة دعواه هذه ، نظراً لما تزخر به هذه الرحلة من أغلاط لا يعقل أن يكون التونسي قد سمعه يقرأها ثم وافق عليها وتركها دون تصويب . ولا بد أنه أساء النقل كما أساء القراءة إذ بين هذه الأغلاط كما ذكرنا مالا يصدر إلا عن مبتدىء في دراسة علوم اللغة العربية لم يتسن له الإلمام بأيسر قواعدها . وهو على ما بذل من جهد في دراستها لم يصب منها حظاً كبيراً . ويضاف إلى ذلك أنه في ترجمته الفرنسية للرحلة يخطىء أحياناً في فهم النص العربي بما يؤدي إلى مسخه وتشويهه . نذكر على سبيل المثال : ما جاء في ص ٧٨ من التحقيق :

---

(١) المجلة السياسية والأدبية سنة ١٨٧٨م ص ٢٠٠ نقلا عن ديهيران في الموضع السابق .

(٢) ص ٤٧ من كتابه : حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة سنة ١٩٤٥م .

(٣) لم يذكر لنا زيدان المصدر الذي استقى منه ثناء التونسي على عربية بيرون ونرى أنه لو صح هذا الخبر فان التونسي انما قصد به التشجيع والمجاملة .

« فتأملها فوجدها كالشمس في رابعة النهار » ترجمها في ص ٦١ من الترجمة الفرنسية بما معناه أنها بدت له كالشمس في الساعة الرابعة من النهار . ولنتصور مبلغ ما يشعر به القارئ الفرنسي لترجمته من حيرة بسبب تحديد هذا الوقت بالذات ولماذا لا يكون قبله أو بعده ؟ وكان بوسعه أن يتصرف قليلاً كأن يقول مثـــلاً : **avoir l'éclat du soleil dans toute sa splendeur.**

(à la quatriéme heure du jour) بدلا من قوله :

وعبارة « لله دَرّ الطغرائي حيث يقول » في ص ٤٢ من التحقيق ترجمها بيرون في ص ٤١٩ من الترجمة الفرنسية كما يلي :

Lait de Dieu pour Togray qui a tracé cls vers :

أى « لبن الله للطغرائي الذى قال هذه الأبيات » . ولنتخيل مرة أخرى مدى غرابة هذا التعبير في نظر القارىء الفرنسي لترجمته مع أن المقصود به أن يقال لكل متعجب منه . وكان بوسعه أن يستفسر من الشيخ التونسي عن هذا التعبير « لله دره » الذى يرد كثيراً في كتب الأدب أو أن يرجع في استيضاحه إلى القاموس المحيط الذى طال ما أشار إليه في رسائله إلى صديقه موهل . وقد جاء فيه : لله دره أى عمله ولاَ درّ دَرُّه أى لازكا عمله . ولسنا هنا بصدد معارضة الترجمة الفرنسية للرحلة على أصلها العربي ولكنا نستدل من هذه الأغلاط والسقطات سواء في النص العربي أو الترجمة على أن بيرون فاتته أشياء كثيرة كان بوسعه أن يتداركها لوأنه كان قد توخى مزيداً من الدقة في عمله .

ونرى أنه كان من الطبيعى أن تصدر هذه الأغلاط من الطبقات الأولى من المستشرقين الذين ظهروا منذ أوائل القرن الماضى ، إذ كانوا لا يزالون حديثي العهد بالدراسات العربية . غير أن جهودهم مهدت السبيل لمن جاءوا بعدهم ويسرت للخلف من الحذق والدراية ما فاقوا به على السلف ، نلمس هذا في أية موازنة نعقدها بين أعمال متقدميهم وأعمال متأخريهم .

هذا وقد تصدى لموضوع مستوى المستشرقين في الدراسات العربية في أواسط القرن الماضى الكاتب اللغوى اللبناني الشهير فارس الشدياق (١٨٠٩ — ١٨٨٧ م) أحد أعلام النهضة العربية في القرن الماضى وذلك في

كتابه : الساق على الساق فيما هو الفارياق الذى طبعه في باريس في سنة١٨٥٥م عند الناشر بنامين دوبرا B. Duprat الذى كان قد نشر الترجمة الفرنسية لرحلة التونسى إلى دارفور في سنة ١٨٤٥ م . ففى نهاية الطبعة الباريسية لكتاب الساق على الساق في ص ٧١٢ ألحق مؤلفه ذيلاً لكتابه بترقيم جديد يقع في ٢٤ صحيفة سماه : : ذنب الكتاب : وينتظم به لآلىء أغلاط الرءوس العظام الأساتيذ الكرام مدرسى اللغة العربية في مدارس باريس » . وقد عرض فيه لأخطاء المستشرقين في نشرياتهم وقال بان هؤلاء الأساتذة لم يأخذوا العلم عن شيوخه من أبناء البلاد الشرقية وإنما تطفلوا عليه تطفلاً وإن من تخرج فيه بشىء توهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله وأن من درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء » . ثم تناول الشدياق عدداً من نشرياتهم نذكر منها الطبعة العربية الثانية لمقامات الحريرى التى أشرف على تحقيقها المستشرقان رينو وديرنبور والتى نشراها في باريس في سنة ١٨٤٧ م . وقد أورد الشدياق جدولا ضخماً بأخطائهما في هذه الطبعة استهله بقوله : « واعلم أيها القارىء أني لم أجد من بين جميع ما طبعوا بلغتنا ما هو جدير بالانتقاد سوى مقامات الحريرى ، وإني لضيق وقتى حالة كوني على جناح السفر لم يمكن لى النظر إلا في أبيات الشرح فقط . وقد وكلت غيرى في نقد الباقي كما وكلنى العلماء في نقد الأبيات » .

وعرض الشدياق في ص ٨ من الذيل على كتاب الساق لأخطاء الطبعة الحجرية للنص العربي لرحلة التونسى إلى دارفور التى نشرها بيرون في باريس في سنة ١٨٥٠ م إذ كتب يقول : « ثم عثرت بعد ذلك برحلة العالم الأديب الشيخ محمد بن السيد عمر التونسى مطبوعة على الحجر من خط مسيو بيرون وقد شحنها كلها بالتحريف والغلط مما لاتصح نسبته إلى أدني تلامذة الشيخ المذكور . أيمكن لأحد من الطلبة فضلاً عن العالم أن يقول : جُوده ناسخٌ لكل الوجود ، أى لكل الجود ؟ وأن يكتب العصا بالياء غير مرة ؟ وأعلى أفعل التفضيل بالألف نحو عشرين مرة ؟ ونجا بالياء ؟ وأتعمى المعالمون عن الضياء[1] ؟ وآمنين مطمئنين حالة كونهما مرفوعين ؟ وفلاحين مصر؟

(١) صوابها : أيعمى العالمون عن الضياء .

ومحمودين السيرة ؟ واستوزر الفقيه مالك[1]؟ ولايعصى بالألف؟ ولا أرى سوء رأيك أى لا أرى سوى رأيك ؟ ويتعدى رأيه بالألف ؟ واثنى عشر ملك ؟ ومن حيث أن أباديما والتكيناوى متعادلين أى متعادلان ؟ وتجد الرجال والنساء حسان ؟ ودعا لنا بالياء ؟ وعجوبة ؟ وصواحبتها وصواحباتها ؟ ولغة فيها حماس ؟ وأنهما متقاربتى المعنى ؟ وحتى تأتي أرباب الماشية فيقبضون؟ فهل إحدى منكم ؟ ويرفعون أصواتهم بذلك حتى يدخلون ؟ وماشيين؟ والمسميين؟ وحتى يشقون ؟ ومنحنيون ؟ وأنهم يكونوا ؟ ولا اعتاض أى لاعتاض ؟

« أو أنه يجهل بحور الشعر فيجعل الكامل هزَجاً والطويل مديداً وما أشبه ذلك . . . فانظر إلى هذا التخليط وتعجب » .

ويتضح مما ذكره الشدياق عن أخطاء بيرون في تحريره لرحلة التونسى إلى دارفور أنه لم يذكر سوى عدد يسير منها إذ لم يعمد إلى استقصائها كما حاولنا في ثبتنا المطول لتقويم النص . بيد أنها تعزز ما أكدناه من ضعف مستوى بيرون في علوم اللغة العربية كما تحملنا على إطراح زعمه بأنه قرأ الرحلة على مؤلفها قراءة صحيحة ، وعلى ذلك فلا مناص من اعتبار النسخة التى طبعها بيرون مغايرة لنظيرتها التى كتبها التونسى . وعلينا تبعاً لهذا ألا نتقيد بالأخطاء والسقطات التى وردت بها باعتبارها جزءاً من الأصل فنبادر إلى تصحيحها عند العمل على تحقيق نص الرحلة كما صنع على مبارك في القطعة التى نشرها من مقدمة الرحلة .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك هل اطلع التونسى على الطبعة التى أخرجها بيرون لرحلة دارفور ، فهذه الطبعة نشرت في باريس في سنة ١٨٥٠ م وكان بيرون لايزال مقيماً في مصر لأنه بعد إعفائه من منصبه كناظر لمدرسة الطب في سنة ١٨٤٨ م اشتغل طبيباً بصحة الإسكندرية وآخر رسالة بعث بها إلى صديقه موهل إبان شغله لهذا المنصب أرسلها من الإسكندرية في الثاني من

(١) صوابها : استوزر الفقيه مالكا .

أكتوبر سنة ١٨٥٤ م أى أنه ظل مقيماً بمصر بعد نشره لرحلة دارفور نحو أربع سنوات ، فماذا كانت علاقته بالتونسى إبان عمله بالاسكندرية ؟ هل تراسلا أم انقطعت الصلة بينهما ؟ وهل احتفظ التونسى بالنسختين الأصليتين اللتين كتبهما عن رحلتيه إلى دارفور ووداى أم أعطاهما لبيرون ؟ من المعلوم أن التونسى لم يودع شيئاً من مؤلفاته في مكتبة رواق المغاربة التى ضمت فيما بعد إلى مكتبة الأزهر مع مكتبات الأروقة الأخرى . كما أن بيرون لم يودع شيئاً منها في المكتبة الأهلية في باريس كما صنع الدكتور كلوت في مخطوطة الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية . وإذا كان بيرون قد قصر في نشر النص العربي لرحلة التونسى إلى وداى أولم تتهيأ له العوامل المساعدة على نشرها ، فقد كان واجبه العلمى يحتم عليه أن يودع نسختها الخطية في مكتبة عامة كالمكتبة الأهلية بباريس حتى يتيسر لغيره من الباحثين الاطلاع عليها في أصلها العربي أو التفكير ني نشرها . ويبدو أنه شغل فور فراغه من ترجمة رحلتى التونسى بترجمة مختصر خليل التى لم يتيسر لنا الاطلاع عليها ولكن أشار إليها المستشرق هنرى لامنس[1] H. Lammens (١٨٦٣ – ١٩٣٧ م) المعروف باطلاعه الواسع على المصادر العربية بما يفهم منه أنها ترجمة غير جيدة وأنه تفوقها كثيراً من حيث الدقة الترجمة الإيطالية للمختصر التى قام بها سانتيلانة وجويدى والتى نشراها في ميلانو في مجلدين في سنة ١٩١٩ م .

٩ ــ سيرة التونسى :

إن علينا في سبيل الإجابة على الأسئلة التى تتعلق بالتونسى أن نستقصى ما يتعلق بسيرته . ولقد زودنا هو في مقدمة رحلته إلى دارفور بترجمة ذاتية أوجز فيها كما أنه وقف فيها هى ورحلته الأخرى إلى وداى إلى وقت عودته إلى مصر بعد أن كان يعمل واعظاً في الجيش المصرى في المورة . أى أنه

---

(١) الاسلام عقائده ونظمه (بالفرنسية) الطبعة الأولى نشرت فى بيروت سنة ١٩٢٦ والثانية بعد وفاة المؤلف فى سنة ١٩٤١م ونص عبارة المؤلف عن ترجمة پيرون لمختصر خليل تقع فى ص ٣٠٥ من الطبعة الثانية .

تنقصنا تفصيلات عن سيرته ابتداءً من سنة ١٨٣٢ م إلى وفاته في سنة ١٨٥٧ م وقد زودنا المستشرق فون كريمر ببعض البيانات عن هذه الفترة وذلك في كتابه[١] Aegypten حيث ذكر أنه عند قدومه إلى مصر لأول مرة في سنة ١٨٥٠ م كان التونسي واحداً ممن قاموا بتعليمه اللغة العربية ، ولابد أن بيرون هو الذى قدم التونسي إلى كريمر ولعل كتاب كريمر السالف الذكر هو مرجع من كتبوا عن السنوات الأخيرة من حياة التونسي حيث قيل بأن التونسي أخذ في إلقاء دروس دينية في الحديث كل جمعة في السنوات الأخيرة من حياته في مسجد السيدة زينب وأنه توفي بالقاهرة في سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م.

ومما يؤسف له أن تقليداً صالحاً في الترجمة لأعلام كل قرن هجرى قد اندثر منذ القرن الثاني عشر الهجرى إذ لم يظهر بعد المرادى والجبرتي من يترجم لأعلام القرن الثالث عشر والرابع عشر وما بُذل من محاولات في هذا الصدد لم يبلغ شأو المؤلفين القدامى الذين خلفوا لنا موسوعات كبيرة في تراجم أعلام عصورهم ولو كان لدينا ما يماثلها لظفرنا بترجمة وافية لمحمد بن عمر التونسي .

ويقتضى الحديث في سيرة التونسي أن نشير إلى مواطن آخر له يدعى زين العابدين التونسي الذى لم يتيسر للمستشرق شتريك[٢] Streck أن يعرف عن سيرته شيئاً سوى أنه كان معاصراً لمحمد بن عمر التونسي وأن سيرته تشبه سيرة الأخير شبهاً قوياً فقد كان عالماً واسع الاطلاع ، درس في الأزهر وكان على اتصال وثيق بالأوروبيين في سنة ١٨١٨ م أو سنة ١٨١٩ م وأنه سافر إلى السودان في مقتبل حياته . ويبدو أنه قضى مثل التونسي في البلاد السودانية نحو عشر سنوات . فقد ذهب أولاً إلى سنار ثم إلى كردفان وأقام لفترة طويلة في دارفور ووداى . وكان يتكسب في البلاد التى جال فيها بالعمل واعظاً ومدرساً . وبعد أن قضى ثلاث سنوات في وداى عاد إلى تونس عن طريق فزان . وقد سجل مشاهداته في البلاد السودانية في كتاب طبع

---

(١) جـ ٢ ص ٣٢٤ ليبزج سنة ١٨٦٣م نقلا عن شتريك .

(٢) محرر المادة الخاصة بمحمد بن عمر التونسى فى الموسوعة الاسلامية القديمة المجلد الرابع من النسخة الانجليزية (لندن سنة ١٩٣٤م) .

ونشر ولم يهتد شتريك إلى تاريخ أو مكان طبعه . وقد ترجم الكتاب من العربية إلى التركية وطبعت الترجمة في استانبول في سنة ١٢٦٢ هـ - ١٨٤٦[1]م ثم قام المستشرق فون روزن von Rosen بترجمة النسخة التركية إلى الألمانية ونشرها في ليبزج في سنة ١٨٤٧ م . وتنحصر أهمية كتاب زين العابدين التونسي في وصفه لحضارة دارفور ووداى ونظامهما الاجتماعي حيث أورد بيانات عن حياة البلاط والقبائل والأرقاء والتجارة والعقائد الشعبية وتقاليد الأفراح وغيرها ، مما يعد تكملة هامة لما أورده محمد بن عمر التونسي عنها في صورة أكثر تفصيلاً . ومما استرعى نظر شتريك في كتاب زين العابدين التونسي وصفه لما قام به من الحفائر الأثرية التي أجراها في الأطلال القريبة من العاصمة وذلك بتصريح من سلطان وداى ثم مغادرة زين العابدين لوداى عندما تولى عرش السلطنة سلطان جديد .

١٠ ـ خاتمـــة :

بعد أن أشرنا إلى عدم التقيد بالأخطاء والسقطات التي وردت في نص الرحلة التي نشرها بيرون ووجوب المبادرة إلى تصويبها لتنقية النص من هذه الشوائب ثم التعريف بما ورد به من أعلام الأشخاص والأماكن وغيرها ونسبة الأشعار إلى قائليها وشرح غريب اللغة ، كان يحسن بالمحققين أن يترجما مختارات من مقدمة كل من جومار وبيرون يراعى في اختيارها إثبات ما يتعلق منها بدارفور والرحلة ومؤلفها والبلاد التي زارها . ففي إثبات جانب من هاتين المقدمتين رعاية لحقهما حيث أنه يرجع إليهما الفضل في تدوين المؤلف للرحلة ثم في نشرها وترجمتها ، فضلاً عن القيمة التاريخية لما كتباه .

وإذا اتسع المجال بعد ذلك لتذييل رحلة التونسي بكتابات أخرى عن دارفور فإنه يحسن أن يراعى في اختيارها أن تكون مما كتبه رحالة آخرون

---

(١) حصل الأستاذ الشاطر بصيلى على نسخة من الترجمة التركية لكتاب زين العابدين التونسي ونرجو أن يوفق لترجمتها الى العربية ونشرها خدمة للدراسات السودانية .

قريبو العهد من رحلة التونسي حتى تتهيأ للقارئ فرصة الموازنة بين روايات شهود العيان لبلد واحد . ويحسن أن تكون على جانب من الإيجاز والاختصار فلا تطغى على ما يجب أن يوليه القارئ من اهتمام برحلة التونسي ، ومن الجائز أن يضاف إليها ملاحظات رحالة آخرين قريبي العهد برحلة التونسي وترامت إليهم معلومات عن دارفور في خلال رحلاتهم في البلاد السودانية . وعلى ذلك فإنا لانرى وجهاً لتذييل رحلة التونسي بما كتبه نعوم شقير عن دارفور فالتونسي كتب عن مشاهداته في تلك البلاد في العقد الأول من القرن الماضي وشقير كتب عن روايات شفوية سمعها عن تاريخ دارفور ودونها قبيل ظهور كتابه في سنة ١٩٠٣ م فالشقة الزمنية بين كتابة كل منهما تزيد على ثلاثة أرباع القرن . كما أن كتابة شقير ليست وصفاً لرحلة قام بها مؤلفها إلى دارفور سجل فيها مشاهداته مما يجعلها بعيدة الصلة بكتاب التونسي وإذا كان للأخير قيمة تاريخية فلأنه يصف لنا معالم وأحوالاً في دارفور طرأت عليها عدة تغييرات وتطورات فيما بعد ، ومع ذلك فإن كتاب التونسي يُعَد من كتب الرحلات وليس من كتب التاريخ إذ لايتضمن سوى نبذة في سيرة السلطان عبد الرحمن الرشيد .

ليس لدينا إذاً سوى رحلة وليم جورج برون W. G. Broune إلى دارفور التي سبقت رحلة التونسي بعشر سنوات فحسب . ومع أنه أنه لم يُتَح له التجوال في دارفور بسبب اعتقاله أو تقييد حركاته ومرضه ، فقد تيسر له أن يجمع طائفة من البيانات الهامة عن هذه البلاد في أواخر القرن الثامن عشر نعتقد أنه يشوق القارئ لرحلة التونسي أن يقف عليها ليعقد موازنة بين روايتي رحالتين قريبي العهد بزيارة دارفور . ولكنا لانقصد ترجمة كل ماكتبه برون عن هذه البلاد إذ أن هذا يستغرق كتاباً بأكمله . وإنما يقع الاختيار فيما عقده برون من فصول عن دارفور[1] على الفقرات الخاصة بنظام الحكم

---

(١) عقد برون ستة فصول عن دارفور من الفصل ١٥ الى الفصل ٢١ من ص ١٨٠ الى ص ٣٥٠ والمختار من هذه الصفحات لكي تكون ذيلا على رحلة التونسي لا يتجاوز حيز الصفحات السبع والأربعين المنقولة عن كتاب شقير .

والمهاداة بين سلطان دارفور والباب العالى والتعليم والعادات مما يتصل سواءً بالموضوعات التى تناولها التونسى في رحلته أو أغفل تدوينها ولكنها تكمل الصورة التى رسمها لنا التونسى ونظراً لأن كتابة بيرون عن دارفور تشتمل على قدر من الغث مما يمكن إهماله فإن الفقرات المختارة منها لاتزيد في جملتها عن الصفحات التى نقلت من كتاب شقير ، وذيلت بها رحلة التونسى. وإذا صح ما قاله المحققان تبريراً لإضافة هذا الذيل من أن كتاب شقير الذى طبع في القاهرة في سنة ١٩٠٣م غدا من الكتب النادرة التى يصعب الحصول عليها فما قولهما في رحلات برون التى طبعت في لندن في سنة ١٧٩٩ م

وإذا كنا لانقصد من هذه التذييلات عمل مجموعة أو Corpus من كتابات الرحالة الذين زاروا دارفور فإن رحلة ناختيحال تلى في الأهمية رحلة برون من حيث قربها الزمنى من رحلة التونسى . أما كتابات الرحالة الذين جالوا في البلاد السودانية ولم يزوروا دارفور ولكن ترامت إليهم معلومات عنها دونوها في كتبهم أو ذيلوها بها ففى مقدمتها رحلات بوركهارت في بلاد النوبة[١] ورحلات يالم Ign. Pallme في كردفان[٢] ورحلات بارث H. Barth في البلاد السودانية[٣] .

وأخيراً كان يحسن بالمحققين أن يشيرا إلى البيانات التى وردت عن دارفور في رحلة التونسى نفسه إلى وداى . وهذا يصل بنا إلى ما يعتزمه المحققان وهو الإعداد لنشر رحلة التونسى إلى وداى التى نعتبرها جزءاً مكملاً لرحلة

---

(١) أفرد بوركهارت الذيل الأول لكتابه : رحلات فى بلاد النوبة (لندن سنة ١٨١٩م) لما سمعه فى أسفاره عن دارفور والبلاد المجاورة لها ، ويستغرق هذا الذيل خمسة عشرة صحيفة من ص ٤٧٧ الى ص ٤٩٢ ومما يؤسف له أن الترجمة العربية لرحلات بوركهارت (القاهرة سنة ١٩٥٩م)جاءت خلوا من ترجمته .

(٢) رحلات پالم فى كردفان نشرت فى لندن سنة ١٨٤٤م وقد وردت بها عدة بيانات عن دارفور .

(٣) نشرت رحلات بارث فى لندن سنة ١٨٥٧م فى خمسة مجلدات بعنوان : رحلات وكشوف فى شمالى افريقية ووسطها فيما بين سنتى ١٨٤٩ و ١٨٥٥ م وتعد موسوعة ثمينة عن أحوال البلاد السودانية فى أواسط القرن الماضى .

دارفور يجمعهما العنوان الذى اختاره المؤلف لهما وهو : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . وقد استدللنا فيما سبق من رسائل بيرون إلى موهل على أن الرحلتين إنما هما كتاب واحد وأن تقسيمهما إلى كتابين إنما هو من صنع بيرون ومما يزيد ذلك تأكيداً ماكتبه بيرون على صحيفة الغلاف لترجمته لرحلة وداى إذ يضيف إلى اسم الرحلة بأنها تؤلف تكملة لرحلة دارفور ونص كلمته هو :

Et Faisant Suite au Voyage au Darfour.

وعنوان التونسى لكتابه يتفق مع ماجاء في رحلتيه عن كل من العرب والسودانيين أياً كانت البلاد التى يقيمون بها والتى اتصل المؤلف بأهلها . هذا ويعد نشر الجزء الثاني من تشحيذ الأذهان عملاً عظيماً إذا وفّق المحققان في العثور على نصه العربي في مَظَانّه سواءً في المكتبات العامة والخاصة في فرنسا أو لدى ورثة بيرون إذا كانوا يحتفظون بالنسخة العربية . ونقترح لتشجيع البحث عن هذه النسخة رصد مكافأة مالية سخية تتقدم بها الهيئات المعنية بالمخطوطات العربية ومصادر التاريخ السوداني والإفريقى تعطى لمن يوفق في العثور عليها . أما إذا لم تجْد هذه المحاولات وثبت قطعاً أن النسخة العربية قد فُقدت فإنه لامناص من تعريب الترجمة الفرنسية لرحلة وداى وإعادتها للأصل الذى كانت عليه .

ولكن كيف يتسنى صوغ الترجمة العربية بما يقارب النص الذى دونه التونسى؟ هذه هى المشكلة الكبرى التى إذا استهين بها وتعجل القائمون بالترجمة في نشر الرحلة فسيلحق بها من المسخ والتشويه[1] ما يذهب بقيمتها وروعتها يجب أن يسبق تعريب رحلة التونسى إلى وداى ما يمكن أن يسمى بالتمهيد إلى تعريبها . ولاداعى لأن نذكرقبل إيضاح هذا التمهيد ما يجب أن يتوافر

---

(١) فى ص ١١ من الترجمة العربية لكتاب العرب والروم بقلم ڤاسيليت A. Vasiliev : « وقد جاء فى شعر منسوب الى أحد الولاة أيام خلافة مروان الثانى آخر الأمويين : اهجر مكانك وقل سلام الله على العرب » . وليس هذا شعرا بطبيعة الحال . ولو كان المترجم قد كلف نفسه عناء الرجوع الى كتب التاريخ الاسلامى لعرف أن اسم هذا الوالى هو نصر بن سيار الذى كان واليا على خراسان من قبل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وأنه شهد من =

في مترجمي الرحلة من إجادة اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها . ونلخص هذه الخطوات التمهيدية فيما يلي :

١ — تشبع المترجمين بأسلوب كتابات الجغرافيين والرحالة العرب فضلاً عن رحلة المؤلف نفسه إلى دارفور .

٢ — إعادة الأجزاء التي حذفها بيرون من صلب الرحلة[1] على اعتبار أنها من الاستطرادات البعيدة عن موضوعها والتي رمز إليها بحرف S وذلك إلى مواضعها السابقة في متن الرحلة . وكان قد أحالها بيرون على باب المذكرات والإيضاحات التي ذيل بها الترجمة وهذه الأجزاء المنقولة من مكانها تستغرق نحو مائة صحيفة وتشتمل على نوادر تاريخية تتعلق بالنعمان بن المنذر وجذيمة الأبرش وأخبار الخلفاء والخوارج وبعض الشعراء مثل أبي نواس ومقتبسات من مؤلفات الشعراني وأخبار تاريخية عن طرابلس وتونس وما يتخلل كل ذلك من أشعار لم ينسبها المؤلف إلى قائليها فضلاً عن الأحاديث النبوية التي لم تحدد مواضعها في كتب الحديث كما تشتمل على عدد قليل من الآيات القرآنية التي لم تحدد مواضعها كذلك .

٣ — وفيما يتعلق بالأحاديث النبوية يُعرف موضوعها الذي تتناوله ثم يبحث عن نصوصها عن طريق الاستعانة بفهارس الحديث مثل مفتاح كنوز السنة وذخائر المواريث ثم يرجع إلى بعض المختارات المصنفة مثل مصابيح السنة للبغوي وتيسير الوصول للشيباني والترغيب والترهيب للمنذري وكنوز الحقائق للمناوي أو للمطولات مثل كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لحسام الدين الهندي .

= اظهار الدعوة العباسية في خراسان ما حمله على تنبيه الخليفة الى الخطر المحدق بالدولة في كتاب بعث به اليه وشفعه بأبيات مشهورة في كتب الأدب والتاريخ مطلعها :

أرى خلل الرماد وميض جَمْر ويوشك أن يكون له ضرام

وآخرها هو البيت الذي استشهد به قاسيليف وهو :

فَفِرِّي عن رحالك ثم قولي على الاسلام والعرب السلام

فأين هذا من الترجمة التي أوردها المترجم ؟ اننا نرجو ألا يلحق رحلة التونسي الى وداي عند ترجمتها من المسخ والتشويه ما يماثل هذا .

(١) اتبع بيرون هذه الطريقة في ترجمته لرحلة التونسي الى دارفور .

٤ — وفيما يتعلق بالأشعار يحسن البدء بترجمة معانيها والبحث عن نصوصها في كتب الأدب والمجاميع الأدبية مثل الأغاني وعيون الأخبار والكامل والعقد ويتيمة الثعالبي ومحاضرات الأصبهاني والمستطرف وبعض الدواوين والمختارات وغيرها .

٥ — محاولة الإطلاع على الكتب العربية التى يعتقد أن التونسى قد اطلع عليها وكان لها أثر في أسلوبه وتفكيره ونضيف إلى ماذكرنا منها فيما يتعلق بالشعر كتب المقامات للبديع والحريرى وشرح الصفدى على لامية العجم وثمرات الأوراق لابن حجة وغرر الخصائص الواضحة للوطواط وحَلْبة الكُمَيت للنواجى والكشكول والمخلاة كلاهما للعاملى وقد سبقت لنا الاستعانة بهذه المؤلفات في معرفة أسماء الشعراء الذين تمثل التونسى بشعرهم في رحلته إلى دارفور .

٦ — وأخيراً يجب أن يضع المترجمون في اعتبارهم ما قد يقع من بيرون من خطأ في ترجمة النص العربي

وهذه الخطوات التمهيدية مع ما تستغرقه من وقت وجهد لايقصد بها تجسيم مصاعب الترجمة ولكن يراد بها صوغ الرحلة إلى وداى بما يقارب الأسلوب الذى سار عليه التونسى في تدوينها ، وذلك حتى نعالج تقصير بيرون في نشر نصها العربي .

هذا ولم يدفعنى لتقييد هذه الاستدراكات التى لم تتسع صفحات المجلة التاريخية إلا لنشر مقتطفات يسيرة منها سوى ماذكره المحققان في ختام مقدمتهما لتشحيذ الأذهان من أنهما يناشدان كل قارئ كريم أن يمدهما بما عساه يتراءى له من ملاحظات تساعدهما على استيفاء ما هنالك من مواضع تستأهل إعادة النظر في إخراج الكتاب » . كما يأملان « أن يمدهما القارئ بما ينير لهما الطريق في إخراج رحلة وداى. » وإني إذ أنوه بما بذلا من جهد وأدعو لهما بالتوفيق فيما يعتزمان القيام به ، لم أقصد من هذه الاستدراكات إلا أن أكون واحداً من أولئك القراء ؟

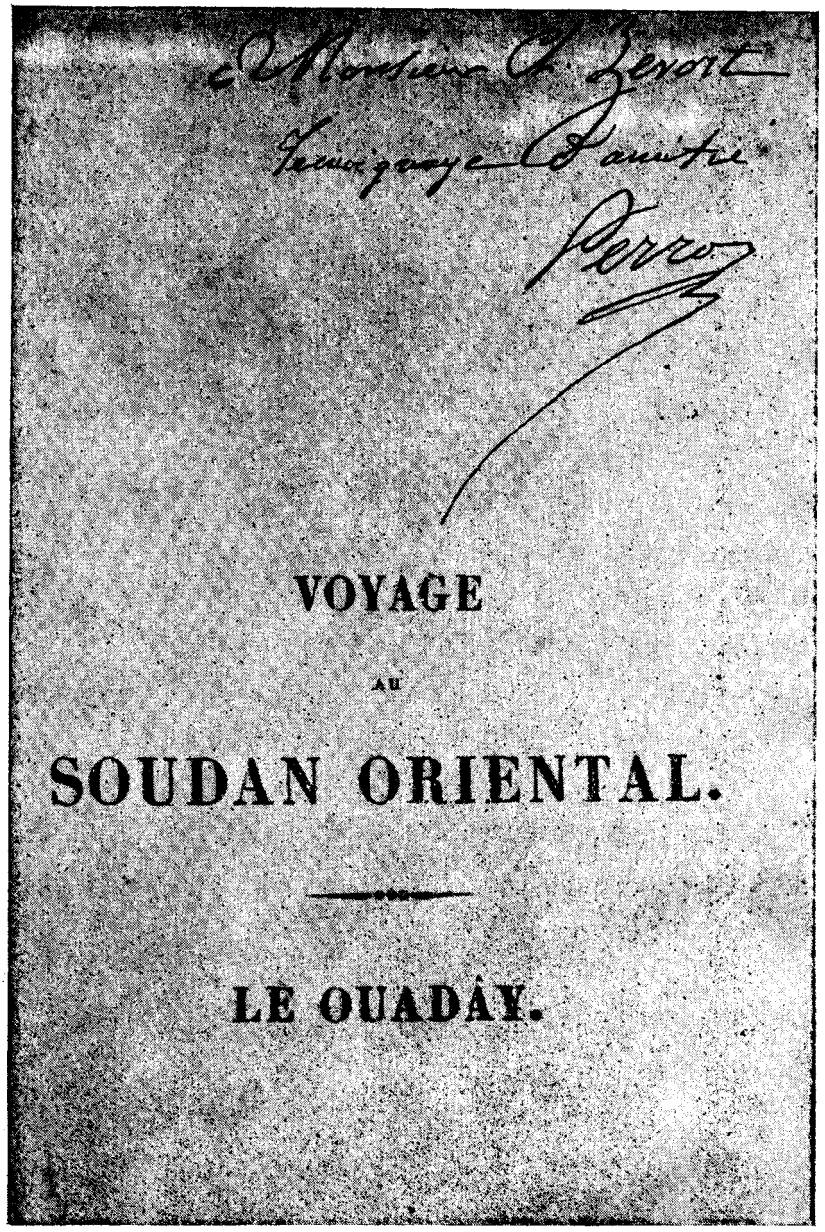

مثال من خط بيرون وتوقيعه ، كتبه على نسخة من ترجمتهالفرنسية لرحلة التونسى إلى وداى كان قد أهداها إلى أحد أصدقائه ، ومكتوب عليها :

à Monsieur, Ch. Zevort

Témoignage d'amitié

Perron

ثم انتقلت ملكيتها إلى الدكتورهوجيه Dr. Huguet وانتهى بها المطاف إلى أن صارت في مكتبة كاتب هذه الاستدراكات .